١٣

صفوة التفاسير

القسم الثالث عشر

تفسير السور الكريمة

سبأ - فاطر - يس

تأليف

محمد علي الصابوني

الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية

جامعة أم القرى - مكة المكرمة

طُبعَ على نفقة المحسن الكبير

معالي السيد حسن عباس الشربتلي

وجعله وقفاً لله تعالى

يوزع مجاناً ولا يُباع

دار القرآن الكريم

بيروت

اهداءات ٢٠٠١

الاستاذ / حسنى رياض

صفوة التفاسير

تفسير للقرآن الكريم ، جامع بين المأثور والمعقول ، مستمد من أوثق كتب التفسير
بأسلوب ميسّر ، وتنظيم حديث ، مع العناية بالوجوه البيانية واللغوية

القسم الثالث عشر

تفسير السور الكريمة
سبأ - فاطر - يس

تأليف

محمد علي الصابوني

الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية

جامعة أم القرى - مكة المكرمة

طُبِعَ على نفقة المحسن الكبير

مَعَالي السيد حسن عباس الشربتلي

وجعله وقفاً لله تعالى

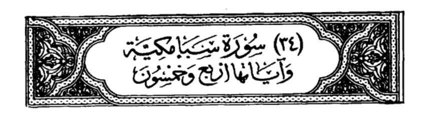
يوزع مجاناً ولا يباع

دار القرآن الكريم

بيروت

الطبعة الأولى
١٤٠١هـ ــ ١٩٨١م

شركة الطباعة العربية السعودية المحدودة، العمارية، الرياض



بين يدي السورة

* سورة سبأ من السور المكية ، التي تهتم بموضوع العقيدة الإسلامية ، وتتناول أصول الدين ، من إثبات الوحدانية ، والنبوة ، والبعث والنشور .

* ابتدأت السورة الكريمة بتمجيد الله جل وعلا ، الذي أبدع الخلق ، وأحكم شئون العالم ، ودبَّر الكون بحكمته ، فهو الخالق المبدع الحكيم ، الذي لا يغيب عن علمه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ، وهذا من أعظم البراهين على وحدانية رب العالمين .

* وتحدثت السورة عن قضيةٍ هامة ، هي إنكار المشركين للآخرة ، وتكذيبهم بالبعث بعد الموت ، فأمرت الرسولﷺ أن يقسم بربه العظيم ، على وقوع المعاد ، بعد فناء الأجساد ﴿وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم . .﴾ الآية .

* وتناولت السورة قصص بعض الرسل ، فذكرت « داود » وولده « سليمان » عليهما السلام ، وما سخَّر الله لهما من أنواع النعم ، كتسخير الريح لسليمان ، وتسخير الطير والجبال تسبّح مع « داود » إظهاراً لفضل الله عليهما في ذلك العطاء الواسع .

* وتناولت السورة بعض شبهات المشركين ، حول رسالة خاتم الأنبياء والمرسلين ، ففندتها بالحجة الدامغة والبرهان الساطع ، كما أقامت الأدلة والبراهين على وجود الله ووحدانيته .

* وختمت السورة بدعوة المشركين إلى الايمان بالواحد القهار ، الذي بيده تدبير أمور الخلق أجمعين .

التسمية : سميت سورة « سبأ » لأن الله تعالى ذكر فيها قصة سبأ ، وهم ملوك اليمن ، وقد كان أهلها في نعمة ورخاء ، وسرور وهناء ، وكانت مساكنهم حدائق وجنات ، فلما كفروا النعمة دمَّرهم الله بالسيل العرم ، وجعلهم عبرة لمن يعتبر .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١) يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ (٢)﴾

اللغَة : ﴿يلج﴾ يدخل والولوج الدخول ومنه «حتَّى يلج الجمل في سم الخياط» ﴿يعرج﴾ يصعد ومنه المعراج لأنه صعودٌ إلى السموات ﴿يعزُب﴾ يغيب يقال : عزب عن عينه أي غاب عنها ﴿مثقال﴾ وزن ومقدار ﴿جِنَّة﴾ بكسر النون بمعنى الجنون وبضمها بمعنى الوقاية والحجاب ﴿كسفاً﴾ قطعاً ﴿أوبي﴾ سبحي والتأويب : التسبيح ﴿سابغات﴾ واسعات كاملات يقال : سبغ الدرعُ والثوبُ إذا غطَّى كل البدن وفضل منه شيء قال أبو حيان : السابغات : الدروع وأصله الوصف بالسبوغ وهو التمام والكمال ، وغلب على الدروع فصار كالأبطح قال الشاعر :

عليها أُسودٌ ضارياتٌ لبُوسُهم ... سوابغُ بيضٌ لا يخرقها النَّبل[١]

﴿السَّرد﴾ النسج ، وهو نسج حلق الدروع قال القرطبي : وأصله من الإحكام قال لبيد :

صنع الحديد مضاعفاً أسراده ... لينال طول العيش غير مروم[٢]

﴿القطر﴾ النحاس المذاب ﴿جفان﴾ جمع جفنة وهي القصعة الكبيرة ﴿الجوابي﴾ جمع جابية وهي الحوض الكبير يجمع فيه الماء قال الأعشى :

نفى الذم عن آل المحلّق جفنةٌ ... كجابية الشيخ العراقي تفهق[٣]

﴿منسأته﴾ المنسأة : العصا سميت بذلك لأنه يُنسأ بها أي يُطرد ويزجر قال الشاعر :

إذا دببتَ على المنْساة من كبر ... فقد تباعد عنك اللهو والغزل[٤]

التفسِير : ﴿الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض﴾ أي الثناء الكامل على جهة التعظيم والتبجيل لله الذي له كل ما في الكون خلقاً وملكاً وتصرفاً ، الجميع ملكه وعبيده وتحت قهره وتصرفه ، فله الحمد في الدنيا لكمال قدرته ، وفي الآخرة لواسع رحمته ﴿وله الحمد في الآخرة﴾ أي وله الحمد بأجمعه لا يستحقه أحد سواه ، لأنه المنعم المتفضل على أهل الدنيا والآخرة ﴿وهو الحكيم الخبير﴾ أي الحكيم في صنعه ، الخبير بخلقه ، فلا اعتراض عليه في فعلٍ من أفعاله ﴿يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها﴾ تفصيل لبعض معلوماته جلَّ وعلا أي يعلم ما يدخل في جوف الأرض من المطر والكنوز

(١) البحر المحيط ٧/ ٢٥٥ . (٢) القرطبي ١٤/ ٢٦٩ . (٣) القرطبي ١٤/ ٢٧٥ . (٤) البحر ٧/ ٢٥٥ .

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ

والأموات ، وما يخرج من الأرض من الزروع والنباتات وماء العيون والآبار ﴿وما ينزل من السماء وما يعرج فيها﴾ أي وما ينزل من السماء من المطر والملائكة والرحمة ، وما يصعد إليها من الأعمال الصالحات ، والدعوات الزاكيات ﴿وهو الرحيم الغفور﴾ أي الرحيم بعباده ، الغفور عن ذنوب التائبين حيث لا يعاجلهم بالعقوبة ، ثم حكى تعالى مقالة المنكرين للبعث والقيامة فقال ﴿وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعةُ﴾ أي وقال المشركون من قومك لا قيامة أبداً ولا بعث ولا نشور قال البيضاوي : وهو إنكار لمجيئها أو استبطاء استهزاءً بالوعد به[1] ﴿قل بلى وربي لتأتينكم﴾ أي قل لهم يا محمد : أقسم بالله العظيم لتأتينكم الساعة ، فإنها واقعة لا محالة قال ابن كثير : هذه إحدى الآيات الثلاث التي أمر الله رسوله أن يقسم بربه العظيم على وقوعها ، والثانية في يونس ﴿قل إي وربّي إنه لحق﴾ والثالثة في التغابن ﴿قل بلى وربّي لتُبعثن﴾[2] ﴿عالم الغيب لا يعزُب عنه مثقالُ ذرةٍ في السموات ولا في الأرض﴾ أي هو جل وعلا العالمُ بما خفي عن الأبصار ، وغاب عن الأنظار ، لا يغيب عنه مقدار وزن الذرة في العالم العلوي أو السفلي ﴿ولا أصغر من ذلك ولا أكبر﴾ أي ولا أصغر من الذرة ولا أكبر منها ﴿إلا في كتاب مبين﴾ أي إلا ويعلمه الله تعالى وهو في اللوح المحفوظ ، والغرضُ أن الله تعالى لا تخفى عليه ذرة في الكون فكيف يخفى عليه البشر وأحوالهم ؟ فالعظام وإن تلاشت وتفرقت وتمزقت ، فهو تعالى عالمٌ أين ذهبت وتفرقت ، ثم يعيدها يوم القيامة ﴿ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي أثبتَ ذلك في الكتاب المبين لكي يثيب المؤمنين الذين أحسنوا في الدار الدنيا بأحسن الجزاء ﴿أولئك لهم مغفرةٌ ورزق كريم﴾ أي لهم مغفرة لذنوبهم ، ورزق حسن كريم في دار النعيم ﴿والذين سعوا في آياتنا معاجزين﴾ أي وأما الذين بذلوا جهدهم وجدّوا لإبطال القرآن مغالبين لرسولنا ، يظنون أنهم يعجزونه بما يثيرونه من شبهات حول رسالته والقرآن ﴿أولئك لهم عذابٌ من رجزٍ أليم﴾ أي فهؤلاء المجرمون لهم عذاب من أسوأ العذاب ، شديد الإيلام قال قتادة : الرجزُ : سوء العذاب ﴿ويرى الذين أوتوا العلم﴾ أي ويعلم أولوا العلم من أصحاب النبي عليه السلام ومن جاء بعدهم من العلماء العاملين ﴿الذي أُنزل إليك من ربك هو الحق﴾ أي يعلمون أن هذا القرآن الذي أُنزل عليك يا محمد هو الحق

(١) تفسير البيضاوي ٢/١٢٢ . (٢) ابن كثير المختصر ٣/١٢١ .

﴿الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ۝ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ۝﴾

الذي لا يأتيه الباطل ﴿ويهدي إلى صراط العزيز الحميد﴾ أي ويرشد من تمسك به إلى طريق الله الغالب الذي لا يُقهر ، الحميد أي المحمود في ذاته وصفاته وأفعاله ، ثم ذكر تعالى أساليب المشركين في الصدِّ عن دين الله ، والسخرية برسول الله فقال ﴿وقال الذين كفروا﴾ أي وقال الكافرون من مشركي مكة المنكرون للبعث والجزاء ﴿هل ندلكم على رجلٍ ينبئكم﴾ أي هل نرشدكم إلى رجلٍ يحدثكم بأعجب الأعاجيب ؟ ـ يعنون محمداًﷺ ـ ﴿إذا مُزِّقتم كلَّ ممزَّق﴾ أي إذا بليتم في القبور ، وتفرقت أجسادكم في الأرض ، وذهبت كل مذهب بحيث صرتم تراباً ورفاتاً ﴿إنكم لفي خلق جديد﴾ ؟ أي إنكم ستخلقون خلقاً جديداً بعد ذلك التمزيق والتفريق ؟ والغرضُ من هذا المقال هو السخرية والاستهزاء قال أبو حيان : والقائلون هم كفار قريش قالوه على جهة التعجب والاستهزاء ، كما يقول الرجل لمن يريد أن يعجبه : هل أدلك على قصة غريبة نادرة ؟ ولما كان البعث عندهم من المحال جعلوا من يخبر عن وقوعه في حيز من يتعجب منه ، ونكّروا اسمه عليه ﴿هل ندلكم على رجل﴾ مع أن اسمه أشهر علم في قريش بطريق الاستهزاء[1] ﴿أفترى على الله أم به جِنَّة﴾ أي هل اختلق الكذب على الله ، أم به جنون فهو يتكلم بما لا يدري ؟ قال تعالى رداً عليهم ﴿بل الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ ﴿بل﴾ للإضراب أي ليس الأمر كما يزعمون من الكذب والجنون ، بل الذين يجحدون البعث ولا يصدّقون بالآخرة ﴿في العذاب والضلال البعيد﴾ أي بل هؤلاء الكفار في ضلالٍ وحيرةٍ عن الحق توجب لهم عذاب النار ، فهم واقعون في الضلال وهم لا يشعرون وذلك غاية الجنون والحماقة ، ولما ذكر تعالى ما يدل على إثبات الساعة ، ذكر دليلاً آخر يتضمن التوحيد مع التهديد فقال ﴿أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض﴾ أي ألم يشاهدوا ما هو محيط بهم من جميع جوانبهم من السماء والأرض ؟ فإن الإنسان أينما توجه وحيثما نظر رأى السماء والأرض أمامه وخلفه ، وعن يمينه وشماله ، وهما يدلان على وحدانية الصانع ، أفلا يتدبرون ذلك فيعلمون أن الذي خلقهما قادر على بعث الناس بعد موتهم ؟ ثم هددهم بقوله ﴿إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نُسقط عليهم كسفاً من السَّماء﴾ أي لو شئنا لخسفنا بهم الأرض كما فعلنا بقارون ، أو أسقطنا عليهم قطعاً من السماء كما فعلنا بأصحاب الأيكة ، فمن أين لهم المهرب ؟ قال ابن الجوزي : المعنى أنهم أين كانوا فأرضي وسمائي محيطة بهم ، وأنا

(١) تفسير البحر المحيط ٧/ ٢٥٩ .

* ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ اعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَٰلِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ﴾

القادر عليهم ، إن شئتُ خسفتُ بهم الأرض ، وإن شئتُ أسقطت عليهم قطعة من السماء[1] ﴿إنَّ في ذلك لآيةً لكل عبدٍ منيب﴾ أي إن فيما يشاهدون من آثار القدرة والوحدانية لدلالة وعبرة لكل عبد تائب رجّاع إلى الله ، متأمل فيما يرى قال ابن كثير : يريد أن من قدر على خلق هذه السموات في ارتفاعها واتساعها ، وهذه الأرضين في انخفاضها وأطوالها وأعراضها ، قادر على إعادة الأجسام ، ونشر الرميم من العظام[2] ، ثم ذكر تعالى قصة داود وما خصَّه الله به من الفضل العظيم فقال ﴿ولقد آتينا داودَ منا فضلاً﴾ اللام موطئة لقسم محذوف تقديره وعزة الله وجلاله لقد أعطينا داود منا فضلاً عظيماً واسعاً لا يُقدر قال المفسرون : الفضل هو النبوة ، والزبور ، وتسخير الجبال ، والطير ، والإلانة الحديد ، وتعليمه صنع الدروع إلى غير ذلك ﴿يا جبال أوِّبي معه والطير﴾ أي وقلنا يا جبال سبحي معه ورجّعي التسبيح إذا سبَّح وكذلك أنت يا طيور قال ابن عباس : كانت الطير تسبح معه إذا سبَّح ، وكان إذا قرأ لم تبق دابةٌ إلا استمعت لقراءته وبكت لبكائه[3] ﴿وألنَّا له الحديد﴾ أي جعلنا الحديد ليناً بين يديه حتى كان كالعجين ، قال قتادة : سخر الله الحديد فكان لا يحتاج أن يدخله ناراً ، ولا يضربه بمطرقة ، وكان بين يديه كالشمع والعجين ﴿أنِ اعمل سابغات﴾ أي اعمل منه الدروع السابغة التي تقي الإنسان شر الحرب قال المفسرون : كان يأخذ الحديد بيده فيصير كأنه عجين يعمل به ما يشاء ، ويصنع الدرع في بعض يوم يساوي ألف درهم فيأكل ويتصدق[4] ، والسابغات صفة لموصوف محذوف تقديره دروعاً سابغات ، وهي الدروع الكوامل التي تغطي لابسها حتى تفضل عنه فيجرها على الأرض ﴿وقدِّر في السَّرد﴾ أي وقدر في نسج الدروع بحيث تتناسب حلقاتها قال الصاوي : أي اجعل كل حلقة مساوية لأختها ضيقة لا ينفذ منها السهم لغلظها ، ولا تثقل حاملها واجعل الكل بنسبةٍ واحدة[5] ﴿واعملوا صالحاً﴾ أي واعملوا يا آل داود عملاً صالحاً ولا تتكلوا على عز أبيكم وجاهه ﴿إني بما تعملون بصير﴾ أي إني مطلع على أعمالكم مراقب لها وسأجازيكم بها قال الامام الفخر : ألان الله لداود الحديد حتى كان في يده كالشمع وهو في قدرة الله يسير ، فإنه يَلين بالنار حتى يصبح كالمداد الذي يكتب به ، فأي عاقلٍ يستبعد ذلك على قدرة الله[6] ؟ وهو أول من صنع الدروع حلقاً وكانت قبل ذلك صفائح ثقالاً كما قال تعالى ﴿وعلَّمناه صنعة لبوسٍ لكم لتحصنكم من بأسكم﴾ ، ثم ذكر تعالى ما أنعم به على ولده « سليمان » من النبوة والملك والجاه العظيم فقال ﴿ولسليمان الريح غدوُّها شهر ورواحُها شهر﴾ أي وسخرنا لسليمان الريح تسير بأمره ، وسيرها من الصباح إلى الظهر مسيرة شهر للسائر المجد ، ومن الظهر إلى الغروب مسيرة شهر قال المفسرون : سخَّر

(١) زاد المسير ٦/٤٣٥ . (٢) ابن كثير ٣/١٢٢ . (٣) زاد المسير ٦/٤٣٦ . (٤) القرطبي ١٤/٢٦٦ . (٥) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/٢٩٤ . (٦) التفسير الكبير ٢٥/٢٤٥ .

عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾

الله له الريح تقطع به المسافات الشاسعة في ساعات معدودات ، تحمله مع جنده فتنتقل به من بلدٍ الى بلد ، تغدو به مسيرة شهر إلى نصف النهار ، وترجع به مسيرة شهر إلى آخر النهار ، فتقطع به مسيرة شهرين في نهار واحد ﴿وأسلنا له عين القطر﴾ أي وأذبنا له النحاس حتى كان يجري كأنه عين ماء متدفقة من الأرض قال المفسرون : أجرى الله لسليمان النحاس ، كما ألان لداود الحديد ، آية باهرة ، ومعجزة ظاهرة ﴿ومن الجنّ من يعمل بين يديه بإذن ربه﴾ أي وسخرنا له الجن تعمل بأمره وإرادته ما شاء مما يعجز عنه البشر ، وكل ذلك بأمر الله وتسخيره ﴿ومن يزغ منهم عن أمرنا﴾ أي ومن يعدل منهم عمّا أمرناه به من طاعة سليمان ﴿نذقه من عذاب السعير﴾ أي نذقه النار المستعرة في الآخرة ، ثم أخبر تعالى عما كلف به الجنُّ من الأعمال فقال ﴿يعملون له ما يشاء من محاريب﴾ أي يعمل هؤلاء الجن لسليمان ما يريد من القصور الشامخة ﴿وتماثيل﴾ أي والتماثيل العجيبة من النحاس والزجاج قال الحسن : ولم تكن يومئذٍ محرمة ، وقد حرمت في شريعتنا سداً للذريعة لئلا تُعبد من دون الله ﴿وجفانٍ كالجواب﴾ أي وقصاعٍ ضخمة تشبه الأحواض قال ابن عباس : « كالجواب » أي كالحياض ﴿وقدورٍ راسيات﴾ أي وقدورٍ كبيرة ثابتات لا تتحرك لكبرها وضخامتها قال ابن كثير : والقدور الراسياتُ أي الثابتات في أماكنها لا تتحرك ولا تتحول عن أماكنها لعظمها[١] ﴿اعملوا آل داود شكراً﴾ أي وقلنا لهم اشكروا يا آل داود ربكم على هذه النعم الجليلة ، فقد خصكم بالفضل العظيم والجاه العريض ، واعملوا بطاعة الله شكراً له جل وعلا ﴿وقليلٌ من عبادي الشكور﴾ أي وقليل من العباد من يشكر الله على نعمه قال ابن عطية : وفيه تنبيه وتحريض على شكر الله[٢] ، ثم أخبر تعالى عن كيفية موت سليمان فقال ﴿فلما قضينا عليه الموت﴾ أي حكمنا على سليمان بالموت ونزل به الموت ﴿ما دلّهم على موته إلا دابةُ الأرض تأكل منسأته﴾ أي ما دلَّ الجنَّ على موته إلا تلك الحشرة وهي الأرضة ـ السوسة التي تأكل الخشب ـ تأكل عصا سليمان ﴿فلما خرَّ تبينت الجنُّ أن لو كانوا يعلمون الغيب﴾ أي فلما سقط سليمان عن عصاه ظهر للجن واتضح لهم أنهم لو كانوا يعرفون الغيب كما زعموا ﴿ما لبثوا في العذاب المهين﴾ أي ما مكثوا في الأعمال الشاقة تلك المدة الطويلة ، قال المفسرون : كانت الإنس تقول : إن الجن يعلمون الغيب الذي يكون في المستقبل ، فوقف سليمان في محرابه يصلي متوكئاً على عصاه ، فمات ومكث على ذلك سنةً والجنُّ

(١) مختصر ابن كثير ٣/ ١٢٤ . (٢) القرطبي ١٤/ ٢٧٧ .

تعمل تلك الأعمال الشاقة ولا تعلم بموته ، حتى أكلت الأَرَضةُ عصا سليمان فسقط على الأرض فعلموا موته ، وعلم الإِنس أن الجنَّ لا تعلم الغيب لأنهم لو علموه لما أقاموا هذه المدة الطويلة في الأعمال الشاقة وهم يظنون أنه حي وهو عليه السلام ميت .

البَــلاَغَــة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان نوجزها فيما يلي :

١ ـ تعريف الطرفين لإِفادة الحصر ﴿الحمد لله﴾ ومعناه لا يستحق الحمد الكامل إلا الله .

٢ ـ الطباق بين ﴿يلج . . ويخرج﴾ وبين ﴿ينزل . . ويعرج﴾ وبين ﴿أصغر . . وأكبر﴾ .

٣ ـ صيغة فعيل وفعول للمبالغة ﴿وهو الحكيم الخبير﴾ ﴿وهو الرحيم الغفور﴾ ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾ .

٤ ـ المقابلة بين ﴿ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات . .﴾ الآية وبين ﴿والذين سعوا في آياتنا معاجزين﴾ فقد جعل المغفرة والرزق الكريم جزاء المحسنين ، وجعل العذاب والرجز الأليم جزاء المجرمين .

٥ ـ الاستفهام للسخرية والاستهزاء ﴿هل ندلكم على رجلٍ ينبئكم﴾ وغرضهم الاستهزاء بالرسول ولم يذكروا اسمه إمعاناً في التجهيل كأنه إنسان مجهول .

٦ ـ التنكير للتفخيم ﴿آتينا داود منا فضلاً﴾ أي فضلاً عظيماً ، وتقديم داود على المفعول الصريح للاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر .

٧ ـ الإِيجاز بالحذف ﴿غدوها شهرٌ ورواحها شهر﴾ أي غدوها مسيرة شهر ورواحها مسيرة شهر .

٨ ـ التشبيه ﴿وجفان كالجواب﴾ ويسمى التشبيه المرسل المجمل لذكر أداة التشبيه وحذف وجه الشبه .

* * *

قال الله تعالى : ﴿لقد كان لسبأٍ في مسكنهم آية . . إلى . . هل يجزون إلا ما كانوا يعملون﴾ من آية (١٥) إلى نهاية آية (٣٣) .

المنَاسَبَة : لما بيَّن تعالى حال الشاكرين لنعمه بذكر « داود » و « سليمان » بيَّن حال الكافرين لأنعمه بقصة سبأ ، موعظةً لقريش وتحذيراً وتنبيهاً على ما جرى من المصائب والنكبات على من كفر بأنعم الله ، ثم ذكَّر كفار مكة بنعمه ليعبدوه ويشكروه .

اللغَــة : ﴿سبأ﴾ قبيلة من العرب سكنت اليمن سميت باسم جدهم « سبأ بن يشجب بن قحطان » ﴿العرم﴾ الحاجز بين الشيئين قال النحاس : وما يجتمع من مطر بين جبلين وفي وجهه مُسنَّاة ـ أي

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾﴾

حاجز - فهو العرم[١] ﴿خمط﴾ الخمط : المرُّ البشع قال الزجاج : كل نبتٍ فيه مرارةٌ لا يمكن أكله فهو خمط وقال المبرد : هو كل ما تغيَّر الى ما لا يشتهى ، واللبنُ إذا حمض فهو خمط ﴿أثـل﴾ الأثل : شجر لا ثمر له قال الفراء : وهو شبيه بالطرفاء إلا أنه أعظم منه طولاً ومنه اتخذ منبر رسول الله ﷺ والواحدة أثلة ﴿سدر﴾ قال الفراء : هو السَّـر و ، وقال الأزهري : السدر نوعان : سدر لا ينتفع به ولا يصلح ورقه للغسول وله ثمرة عصفة لا تؤكل ، وسدر ينبت على الماء وثمره النبق وورقه غسول[٢] ﴿ظهير﴾ معين ﴿الفتـاح﴾ القاضي والحاكم بالحق .

التفسِـير : ﴿لقـد كـان لسـبأٍ في مسكنهـم آيـة﴾ اللام موطئة للقسم أي والله لقد كان لقوم سبأ في موضع سكناهم باليمن آية عظيمة دالة على الله جل وعلا وعلى قدرته على مجازاة المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته ، فإن قوم سبأ لما كفروا نعمة الله خرَّب الله ملكهم ، وشتَّت شملهم ، ومزَّقهم شرَّ ممزَّق ، وجعلهم عبرةً لمن يعتبر ، ثم بيَّن تعالى وجه تلك النعمة فقال ﴿جنتـان عـن يميـنٍ وشمـال﴾ أي حديقتان عظيمتان فيهما من كل أنـواع الفواكه والثمار عن يمين الوادي بساتين ناضرة ، وعن شماله كذلك قال قتادة : كانت بساتينهم ذات أشجار وثمار ، تسرُّ الناس بظلالها ، وكانت المرأة تمشي تحت الأشجار وعلى رأسها مكتل أوزنبيل ، فيتساقط من الأشجار ما يملؤه من غير كلفةٍ ولا قطاف لكثرته ونضجه[٣] وقال البيضاوي : ولم يرد بستانين اثنين فحسب ، بل أراد جماعتين من البساتين ، جماعة عن يمين بلدهـم ، وجماعة عن شماله سميت كل جماعة منها جنة لكونها في تقاربها وتضامها كأنها جنة واحدة[٤] ﴿كـلوا مـن رزق ربكـم واشكـروا لـه﴾ أي وقلنا لهم على لسان الرسل : كلوا من فضل الله وإنعامه واشكروا ربكم على هذه النعـم ﴿بلـدة طيبـة وربٌّ غفـور﴾ أي هذه بلدتكم التي تسكنونها بلدةٌ طيبة ، كريمة التربة ، حسنة الهواء ، كثيرة الخيرات ، وربكم الذي رزقكم وأمركم بشكره ربٌّ غفـورٌ لمن شكره ﴿فأعْرضـوا فأرسلنـا عليهم سيـل العرم﴾ أي فأعرضوا عن طاعة الله وشكره ، واتباع أوامر رسله ، فأرسلنا عليهم السيل المدمِّر المخرب الذي لا يطاق لشدته وكثرته ، فغـرَّق بساتينهم ودورهـم قال الطبـري : وحيـن أعرضوا عن تصديق الرسل ، ثقب ذلك السدُّ الذي كان يحبس عنهم السيول ، ثم فاض الماء على جناتهم فغرَّقها ، وخرَّب أرضهم وديارهم[١] ﴿وبدلناهـم بجنَّتيْهـم جنّتيـن ذواتي أُكـل خمـط﴾ أي وأبدلناهم بتلك البساتين الغناء ، بساتين قاحلة جرداء ، ذات أُكل مـرٍّ بشع ﴿وأثـلٍ وشـيء مـن سـدرٍ قليـل﴾

(١) القرطبي ١٤/٢٨٦ . (٢) البحر المحيط ٢٥٦ . (٣) مختصر ابن كثير ٣/١٢٦ . (٤) حاشية زاده على البيضاوي ٣/ ٨٥ والكشاف ٣/٤٥٤ .

﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾

وشيء من الأشجار التي لا ينتفع بثمرها كشجر الأثل والسِّدر قال الرازي : أرسل الله عليهم سيلاً غرَّق أموالهم ، وخرَّب دورهم ، والخمطُ كلُّ شجرة لها شوك وثمرتها مرة ، والأثلُ نوع من الطرفاء ولا يكون عليه ثمرة إلا في بعض الأوقات ، يكون عليه شيء كالعفص أو أصغر منه في طعمه وطبعه ، والسدر معروف وقال فيه ﴿قليل﴾ لأنه كان أحسن أشجارهم ، وقد بيَّن تعالى بالآية طريقة الخراب ، وذلك لأن البساتين التي فيها الناس تكون فيها الفواكه الطيبة بسبب العمارة ، فإذا تركت سنين تصبح كالغيضة والأجمة تلتفُّ الأشجار بعضها ببعض وتنبتُ المفسدات فيها ، فتقل الثمار وتكثر الأشجار[1] قال المفسرون : وتسمية البدل «جنتين» فيه ضربٌ من التهكم ، لأن الأثل والسدر وما كان فيه خمط لا يسمى جنة ، لأنها أشجار لا يكاد ينتفع بها ، وإنما جاء التعبير على سبيل المشاكلة ﴿ذلك جزيناهم بما كفروا﴾ أي ذلك الجزاء الفظيع الذي عاقبناهم به إنما كان بسبب كفرهم ﴿وهل نجازي إلا الكفور﴾ ؟ أي وما نجازي بمثل هذا الجزاء الشديد إلا الكافر المبالغ في كفره قال مجاهد : أي ولا يعاقب إلا الكفور ، لأن المؤمن يكفر الله عنه سيئاته ، والكافر يُجازي بكل سوءٍ عمله[2] ﴿وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قُرى ظاهرة﴾ هذا من تتمة ذكر ما أنعم الله به عليهم أي وجعلنا بين بلاد سبأ وبين القرى الشامية التي باركنا فيها للعالمين قرى متواصلة من اليمن إلى الشام ، يُرى بعضها من بعض لتقاربها ، ظاهرة لأبناء السبيل ﴿وقدرنا فيها السَّير﴾ أي جعلنا السير بين قراهم وبين قرى الشام سيراً مقدراً من منزل إلى منزل ، ومن قرية إلى قرية ﴿سيروا فيها ليالي وأياماً آمنين﴾ أي وقلنا لهم سيروا بين هذه القرى متى شئتم لا تخافون في ليل ولا في نهار قال الزمخشري : كان الغادي منهم يقيل في قرية ، والرائح يبيت في قرية الى أن يبلغ الشام ، لا يخاف جوعاً ولا عطشاً ولا عدواً ، ولا يحتاج إلى حمل زاد ولا ماء ، وكانوا يسيرون آمنين لا يخافون شيئاً[2] ﴿فقالوا ربَّنا باعدْ بين أسفارنا﴾ إخبارٌ بما قابلوا به النعم من الكفران أي أنهم حين بطروا النعمة ، وملوا العافية ، وسئموا الراحة طلبوا من الله أن يباعد بين قراهم المتصلة ليمشوا في المفاوز ويتزودوا للأسفار ، فعجَّل الله إجابتهم بتخريب تلك القرى وجعلها مفاوز قفاراً ﴿وظلموا أنفسهم﴾ أي وظلموا أنفسهم بكفرهم وجحودهم النعمة ﴿فجعلناهم أحاديث﴾ أي جعلناهم أخباراً تُروى للناس بعدهم ﴿ومزقناهم كلَّ ممزَّق﴾ أي وفرقناهم في البلاد شذر مذر ﴿إن في ذلك لآياتٍ لكل صبَّار شكور﴾ أي إن فيما ذكر من قصتهم لعبراً وعظات لكل عبد صابرٍ على البلاء ، شاكر في النعماء ، والمقصود من ذكر قصة سبأ تحذير الناس من كفران النعمة لئلا يحل بهم ما حل بمن قبلهم ، ولهذا

(١) القرطبي ١٤/ ٢٨٨ . (٢) تفسير الكشاف ٣/ ٤٥٥ .

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾

أصبحت قصتهم يضرب بها المثل فيقال: « ذهبـوا أيـدي سبـأ » ثم ذكر تعالى سبب ضلال المشركين فقال ﴿ولقـد صدَّق عليهـم إبليـس ظنَّـه﴾ أي تحقق ظن إبليس اللعين في هؤلاء الضالـين ، حيث ظنَّ أنـه يستطيع أن يغويهم بتزيين الباطل لهم ، وأقسم بقوله ﴿لأغوينهم أجمعين﴾ فتحقق ما كان يظنه قال مجاهد : ظنَّ ظناً فكان كما ظن فصدَّق ظنَّـه[١] ﴿فاتَّبعـوه إلا فريقـاً مـن المؤمنيـن﴾ أي فاتبعـه الناس فيما دعاهـم إليه من الضلالة إلا فريقاً هم المؤمنون فإنهم لم يتبعوه قال القرطبي : أي ما سلم من المؤمنين إلا فريق ، وعن ابن عباس أنهم المؤمنون كلُّهم فتكون ﴿مـن﴾ على هذا للتبيين لا للتبعيض ، وإنما علم إبليس صدق ظنه وهو لا يعلم الغيب ، لأنه لمَّا نفذ له في آدم ما نفذ ، غلب على ظنه أنه ينفذ له مثل ذلك في ذريته وقد وقع له تحقيق ما ظنَّ[٢] ﴿ومـا كان لـه عليهـم مـن سلطـان﴾ أي وما كان لإبليس تسلط واستيلاء عليهم بالوسوسة والإغواء ﴿إلا لنعلـم من يؤمـن بالآخرة ممن هو منهـا في شـك﴾ أي إلا لحكمة جليلة وهي أن نظهر علمنا للعباد بمن هو مؤمن مصدِّق بالآخرة ، ومن هو شاك مرتاب في أمرها ، فنجازي كلاً بعملـه قال القرطبي : أي لم يقهرهم إبليس على الكفر ، وإنما كان منه الدعاء والتزيين[٣] وقال الحسـن : واللـهِ ما ضربهم بعصا ، ولا أكرههم على شيء ، وما كان إلا غروراً وأماني دعاهم إليها فأجابوه[٤] ﴿وربـك على كـل شيء حفيـظ﴾ أي وربك يا محمد على كل شيء رقيب ، لا تخفى عليه خافية من أفعال العباد ، فهو الذي يحفظ عليهم أعمالهم ، ويعلم نياتهم وأحوالهم قال الصاوي : الشيطان سبب الإغـواء لا خالـق الإغواء ، فمن أراد الله حفظه منع الشيطان عنه ، ومن أراد إغواءه سلَّط عليه الشيطان ، والكل فعل الله تعالى[٥] ، وإنما سبقت حكمته بتسليط الشيطان على الإنسان ابتلاءً وامتحاناً ليميز الله الخبيث من الطيب ، والمراد بقوله ﴿لنعلـم﴾ أي لنظهر للخلق علمنا ، وإلا فالله تعالى عالم بما كان وما يكون ﴿قـل ادعـوا الذيـن زعمتـم من دون اللـه﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين أُدعـوا شركاءكم الـذين عبدتموهـم من الأصنام ، وزعمتم أنهم آلهة من دون الله ، أُدعوهم ليجلبوا لكم الخير ، ويدفعوا عنكم الضر قال أبو حيان : والأمر بدعاء الآلهة للتعجيز وإقامة الحجة عليهم[٦] ﴿لا يملكـو ن مثقـال ذرة﴾ أي لا يملكون وزن ذرة من خيرٍ أو نفعٍ أو ضر ﴿فـي السمـوات ولا فـي الأرض﴾ أي في العالم العلوي أو السفلي ، وليسوا بقادرين على أمرٍ من الأمور في الكون بأجمعه ﴿وما لهـم فيهـا من شـرك﴾ أي وليس لتلك الآلهة شركة مع الله لا خلقاً ولا ملكاً ولا تصرفاً ﴿ومـا لـه منهـم مـن ظهيـر﴾ أي وليس له تعالى من الآلهة معينٌ يُعينه في

---

(١) الطبري ٢٢/٦٠ . (٢) القرطبي ١٤/٢٩٢ .
(٣) القرطبي ١٣/٢٩٣ (٤) مختصر ابن كثير ٣/١٢٨ .
(٥) حاشية الصاوي ٣/٢٩٨ . (٦) البحر المحيط ٧/٢٧٥ .

﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾

تدبير أمرهما ، بل هو وحده الخالق لكل شيء ، المنفرد بالإيجاد والإعدام ، ثم لما نفى عنها الخلق والملك ، نفى عنها الشفاعة أيضاً فقال ﴿ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له﴾ أي لا تكون الشفاعة لأحدٍ عند الله من ملكٍ أو نبي ، حتى يُؤذن له في الشفاعة ، فكيف يزعمون أن آلهتهم يشفعون لهم ؟ قال ابن كثير : أي أنه تعالى لعظمته وجلاله وكبريائه لا يجترىء أحدٌ أن يشفع عنده في شيءٍ إلا بعد إذنه له في الشفاعة كقوله ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾ وقوله ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾ وإنما كانت الشفاعة لسيد ولد آدم إظهاراً لمقامه الشريف ، فهو أكبر شفيع عند الله ، وذلك حين يقوم المقام المحمود ليشفع في الخلق كلهم[1] ﴿حتى إذا فُزِّع عن قلوبهم﴾ أي حتى إذا زال الفزع والخوف عن قلوب الشفعاء ، من الملائكة والأنبياء ﴿قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحقَّ﴾ أي قال بعضهم لبعض : ماذا قال ربكم في أمر الشفاعة ؟ فأجابوهم بقولهم : قد أذن فيها للمؤمنين قال القرطبي : إن الله تعالى يأذن للأنبياء والملائكة في الشفاعة ، وهم على غاية الفزع من الله ، لما يقترن بتلك الحال من الأمر الهائل ، والخوف الشديد أن يقع منهم تقصير ، فاذا سُرِّي عنهم قالوا للملائكة فوقهم : ماذا قال ربكم ؟ أي بماذا أمر الله ؟ قالوا الحقَّ أي إنه أذن لكم في الشفاعة للمؤمنين[2] ﴿وهو العليُّ الكبير﴾ أي هو تعالى المتفرد بالعلو والكبرياء ، العظيم في سلطانه وجلاله قال أبو السعود : وهذا من تمام كلام الشفعاء ، قالوه اعترافاً بغاية عظمة جناب الله عز وجل ، فليس لأحدٍ أن يتكلم إلا بإذنه[3] ، ثم وبَّخ تعالى المشركين في عبادتهم غير الخالق الرازق فقال ﴿قل من يرزقكم من السموات والأرض﴾ أي قل لهم يا محمد من الذي يرزقكم من السموات بإنزال المطر ، ومن الأرض بإخراج النبات والثمرات ؟ ﴿قل اللهُ﴾ أي قل لهم : اللهُ الرازق لا آلهتكم قال ابن الجوزي : وإنما أُمر عليه السلام أن يسأل الكفار عن هذا احتجاجاً عليهم بأن الذي يرزق هو المستحق للعبادة ، وهم لا يثبتون رازقاً سواه ، ولهذا جاء الجواب ﴿قل اللهُ﴾ لأنهم لا يجيبون بغير هذا[4] ﴿وإنّا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلالٍ مبين﴾ أي وأحد الفريقين منا أو منكم لعلى هدى أو ضلالٍ بيِّن، وهذا نهاية الإنصاف مع الخصم قال أبو حيان : أخرج الكلام مخرج الشك ، ومعلوم أن من عبد الله وحده كان مهتدياً ، ومن عبد غيره من جماد كان ضالاً ، وفي هذا إنصافٌ وتلطفٌ في الدعوى ، وفيه تعريضٌ بضلالهم وهو أبلغ من الردّ بالتصريح ، ونحوه قول العرب : أخزى الله الكاذب مني ومنك ، مع تيقن أن صاحبه هو الكاذب[5] ﴿قل لا تُسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون﴾ أي لا

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ١٢٩ . (٢) القرطبي ١٤/ ٢٩٥ . (٣) أبو السعود ٤/ ٢٣١ .
(٤) تفسير ابن الجوزي ٦/ ٤٥٤ . (٥) البحر المحيط ٧/ ٢٧٩ .

﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ﴾

تؤاخذون على ما ارتكبنا من إجرام ، ولا نؤاخذ نحن بما اقترفتم ، وإِنما يعاقب كل إنسانٍ بجريرته ، وهذه ملاطفة وتنزُّلٌ في المجادلة إلى غاية الإنصاف قال الزمخشري : وهذا أدخل في الإنصاف وأبلغ من الأول ، حيث أسند الإجرام لأنفسهم والعمل إلى المخاطبين[١] ﴿قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق﴾ أي يجمع الله بيننا وبينكم يوم القيامة ثم يحكم بيننا ويفصل بالحقّ ﴿وهو الفتاح العليم﴾ أي وهو الحاكم العادل الذي لا يظلم أحداً ، العالم بأحوال الخلق ، فيدخل المحقَّ الجنة ، والمبطل النار ﴿قل أروني الذين ألحقتم به شركاء﴾ توبيخٌ آخر على إشراكهم وإظهارٌ لخطئهم العظيم أي أروني هذه الأصنام التي ألحقتموها بالله وجعلتموها شركاء معه في الألوهية ، لأنظر بأي صفةٍ استحقت العبادة مع الذي ليس كمثله شيء ؟ قال أبو السعود : وفيه مزيد تبكيتٍ لهم بعد إلزام الحجة عليهم[٢] ﴿كلاً بل هو الله العزيز الحكيم﴾ ردعٌ لهم وزجر أي ليس الأمر كما زعمتم من اعتقاد شريك له ، بل هو الإِله الواحد الأحد ، الغالب على أمره ، الحكيم في تدبيره لخلقه ، فلا يكون له شريك في ملكه أبداً ﴿وما أرسلناك إلا كافةً للناس بشيراً ونذيراً﴾ أي وما أرسلناك يا محمد للعرب خاصة وإنما أرسلناك لعموم الخلق ، مبشراً للمؤمنين بجنات النعيم ، ومنذراً للكافرين من عذاب الجحيم ﴿ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون﴾ أي ولكنَّ هؤلاء الكافرين لا يعلمون ذلك فيحملهم جهلهم على ما هم عليه من الغيِّ والضلال ﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ أي ويقول المشركون على سبيل الاستهزاء والسخرية : متى هذا العذاب الذي تخوفوننا به إن كنتم صادقين فيما تقولون ؟ والخطاب للنبي والمؤمنين ﴿قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعةً ولا تستقدمون﴾ أي لكم زمان معيَّن للعذاب يجيء في أجله الذي قدَّره الله له ، لا يستأخر لرغبة أحد ، ولا يتقدم لرجاء أحد ، فلا تستعجلوا عذاب الله فهو آتٍ لا محالة ، ثم أخبر تعالى عن تمادي المشركين في العناد والتكذيب فقال ﴿وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه﴾ أي لن نصدِّق بالقرآن ولا بما سبقه من الكتب السماوية الدالة على البعث والنشور ﴿ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم﴾ أي ولو شاهدت يا محمد حال الظالمين المنكرين للبعث في موقف الحساب ﴿يرجع بعضهم إلى بعضٍ القول﴾ أي يلوم بعضهم بعضاً ويؤنب بعضهم بعضاً ، وجواب

(١) الكشاف ٣ . (٢) تفسير أبي السعود ٤/ ٢٣١ .

لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾

﴿لو﴾ محذوف للتهويل تقديره لرأيت أمراً فظيعاً مهولاً ﴿يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين﴾ أي يقول الأتباع للرؤساء : لولا إضلالكم لنا لكنا مؤمنين مهتدين ﴿قال الذين استكبروا للذين استُضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم﴾ ؟ أي قال الرؤساء جواباً للمستضعفين : أنحن منعناكم عن الإيمان بعد أن جاءكم ؟ لا ، ليس الأمر كما تقولون ﴿بل كنتم مجرمين﴾ أي بل أنتم كفرتم من ذات أنفسكم ، بسبب أنكم كنتم مجرمين راسخين في الإجرام ﴿وقال الذين استُضعِفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار﴾ أي وقال الأتباع للرؤساء : بل مكركم بنا في الليل والنهار هو الذي صدَّنا عن الإيمان ﴿إذ تأمروننا أن نكفر باللَّهِ ونجعل له أنداداً﴾ أي وقت دعوتكم لنا إلى الكفر بالله ، وأن نجعل له شركاء ، ولولا تزيينكم لنا الباطل ما كفرنا ﴿وأسرُّوا الندامة لما رأوا العذاب﴾ أي أخفى كل من الفريقين الندامة على ترك الإيمان حين رأوا العذاب ، أخفوها مخافة التعيير ﴿وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا﴾ أي وجعلنا السلاسل في رقاب الكفار زيادةً على تعذيبهم بالنار ﴿هل يُجزون إلا ما كانوا يعملون﴾ أي لا يجزون إلا بأعمالهم التي عملوها ولا يعاقبون إلا بكفرهم وإجرامهم .

البَلاَغَة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الطباق بين لفظ ﴿يمين . . وشمال﴾ وبين ﴿بشير . . ونذير﴾ وبين ﴿تستقدمون . . وتستأخرون﴾ وبين ﴿استضعفوا . . واستكبروا﴾ وهو من المحسنات البديعية .

٢ ـ جناس الاشتقاق ﴿وقدرنا فيها السير سيروا﴾ فإن كلمة ﴿سيروا﴾ مشتقة من السير .

٣ ـ التعجيز بدعاء الجماد الذي لا يسمع ولا يحس ﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله﴾ .

٤ ـ التوبيخ والتبكيت ﴿قل من يرزقكم من السموات والأرض﴾ ؟

٥ ـ حذف الخبر لدلالة السياق عليه ﴿قل الله﴾ أي قل الله الخالق الرازق للعباد ودل على المحذوف سياق الآية .

٦ ـ المبالغة بذكر صيغ المبالغة ﴿إن في ذلك لآيات لكل صبَّار شكور﴾ فإن فعَّال وفعيل وفعول من

صيغ المبالغة ومثلها ﴿وهو الفتاح العليم﴾ .

٧ ـ حذف الجواب للتهويل والتفزيع ﴿ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم﴾ حذف الجواب للتهويل أي لو ترى حالهم لرأيت أمراً فظيعاً مهولاً .

٨ ـ المجاز العقلي ﴿بل مكر الليل والنهار﴾ أسند المكر إلى الليل والمراد مكر المشركين بهم في الليل ففيه مجاز عقلي .

٩ ـ الاستعارة ﴿لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه﴾ ليس للقرآن يدان ولكنه استعارة لما سبقه من الكتب السماوية المنزلة من عند الله .

١٠ ـ مراعاة الفواصل لما لها من وقع حسن على السمع مثل ﴿وهل نجازي إلاالكفور ؟. . إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾ الخ .

* * *

قال الله تعالى : ﴿وما أرسلنا في قريةٍ . . إلى . . إنهم كانوا في شكٍ مريب﴾
من آية (٣٤) إلى آية (٥٤) نهاية السورة .

المناسبة : لمّا ذكر تعالى قصة أهل سبأ وكفرهم بنعم الله ، وما أعقب ذلك من تبديل النعمة الى النقمة ، ذكر هنا اغترار المشركين بالمال والبنين ، وتكذيبهم لرسول الله عليه السلام ، وختم السورة الكريمة ببيان مصرع الغابرين ، تسليةً لرسول الله ﷺ وتخويفاً وتحذيراً للمشركين .

اللغة : ﴿مترفوها﴾ المترف : المنعَّم المتقلب في الغنى والعز والجاه ﴿يبسط﴾ يوسّع ﴿يقدر﴾ يقتّر ﴿زُلفى﴾ قربى ﴿إفك﴾ كذب مختلق ﴿معشار﴾ المعشار : العُشر قال الجوهري : ومعشار الشيء عشره[1] ، فهما لغتان ﴿نكير﴾ أصلها نكيري حذفت الياء لمراعاة الفواصل قال الزجاج : النكير : اسم بمعنى الإنكار ﴿جنة﴾ بكسر الجيم أي جنون ﴿فوت﴾ نجاة ومهرب ﴿التناوش﴾ التناول قال الزمخشري : والتناوش والتناول أخوان ، إلا أن التناوش تناولٌ سهلٌ لشيء قريب[2] ، ومنه المناوشة في القتال وذلك عند تداني الفريقين ، قال ابن السكيت : يقال للرجل إذا تناول رجلاً ليأخذه ناشَه .

وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا

التفسير : ﴿وما أرسلنا في قريةٍ من نذير﴾ أي لم نبعث في أهل قريةٍ رسولاً من الرسل ينذرهم عذابنا ﴿إلا قال مترفوها﴾ أي إلا قال أهل الغنى والتنعم في الدنيا ﴿إنّا بما أرسلتم به كافرون﴾ أي لا نؤمن برسالتكم ولا نصدقكم بما جئتم به قال قتادة : المترفون هم جبابرتهم وقادتهم ورؤساؤهم في الشر[3] ، وهم الذين يبادرون إلى تكذيب الأنبياء ، والقصد بالآية تسلية النبي ﷺ على تكذيب أكابر قريش له ﴿وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً﴾ أي وقال مشركو مكة : نحن أكثر أموالاً

(١) القرطبي ١٤/ ٣١٠ . (٢) الكشاف ٣/ ٤٦٨ . (٣) القرطبي ١٤/ ٣٠٥ .

وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا أَمْوَٰلُكُمْ وَلَا أَوْلَٰدُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن

وأولاداً من هؤلاء الضعفاء المؤمنين ﴿وما نحن بمعذبين﴾ أي إن الله لا يعذبنا لأنه راضٍ عنا ، ولو لم يكن راضياً عنا لما بسط لنا في الرزق ، قاسوا أمر الدنيا على الآخرة ، وظنوا أن الله كما أعطاهم الأموال والأولاد في الدنيا لا يعذبهم في الآخرة قال أبو حيان : نصَّ تعالى على المترفين لأنهم أول المكذبين للرسل ، لما شُغلوا به من زخرف الدنيا ، وما غلب على عقولهم منها ، فقلوبهم أبداً مشغولة منهمكة ، بخلاف الفقراء فإنهم خالون من مستلذات الدنيا ، فقلوبهُم أقبل للخير ولذلك كانوا أكثر أتباع الأنبياء[1] ﴿قل إنَّ ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾ أي قل لهم يا محمد : إن توسعة الرزق وتضييقه ليس دليلاً على رضى الله ، فقد يوسّع الله على الكافر والعاصي ، ويضيق على المؤمن والمطيع ابتلاءً وامتحاناً ، فلا تظنوا أن كثرة الأموال والأولاد دليل المحبة والسعادة ، بل هي تابعة للحكمة والمشيئة ﴿ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون﴾ أي ولكنَّ أكثر هؤلاء الكفرة لا يعلمون الحقيقة ، فيظنون أن كثرة الأموال والأولاد للشرف والكرامة ، وكثيراً ما يكون للاستدراج[2] كما قال تعالى ﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾ ولهذا أكّد ذلك بقوله ﴿وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زُلفى﴾ أي ليست أموالكم ولا أولادكم التي تفتخرون بها وتكاثرون هي التي تقربكم من الله قربى ، وإنما يقرّب الإيمان والعمل الصالح قال الطبري : الزلفى : القربى ، ولا يعتبر الناس بكثرة المال والولد[3] ، ولهذا قال تعالى بعده ﴿إلاّ من آمن وعمل صالحاً﴾ أي إلا المؤمن الصالح الذي ينفق ماله في سبيل الله ، ويعلّم ولده الخير ويربيه على الصلاح فإن هذا الذي يقرّب من الله[4] ﴿فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا﴾ أي تضاعف حسناتهم ، الحسنة بعشر أمثالها وبأكثر إلى سبعمائة ضعف ﴿وهم في الغرفات آمنون﴾ أي وهم في منازل الجنة العالية آمنون من كل عذاب ومكروه ، ولما ذكر جزاء المؤمنين ، ذكر عقاب الكافرين ، ليظهر التباين بين الجزاءين فقال ﴿والذين يسعون في آياتنا معاجزين﴾ أي يسعون في الصدّ عن سبيل الله ، واتباع آياته ورسله ، معاندين لنا يظنون أنهم يفوتوننا بأنفسهم ﴿أولئك في العذاب محضرون﴾ أي فهم مقيمون في العذاب ، محضرون يوم القيامة للحساب ﴿قل إنَّ ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له﴾ أي قل يا محمد : إن ربي يوسّع الرزق لمن يشاء من خلقه ، ويقتّر على من يشاء ، فلا تغتروا بالأموال التي رزقكم الله إيَّاها قال في التسهيل : كررت الآية لاختلاف القصد ، فإنَّ القصد بالأول

(١) البحر المحيط ٧/ ٢٨٥ . (٢) البيضاوي ٢/ ١٢٦ . (٣) تفسير الطبري ٢٢/ ٦٨ . (٤) البيضاوي ٢/ ١٢٦ .

شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾

الكفار ، والقصد هنا ترغيب المؤمنين بالإنفاق[١] ﴿وما أنفقتم من شيءٍ فهو يُخلفه﴾ أي وما أنفقتم في سبيل الله قليلاً أو كثيراً فإن الله تعالى يعوّضه عليكم إما عاجلاً أو آجلاً ﴿وهو خيرُ الرازقين﴾ أي هو تعالى خير المعطين[٢] ، فإنَّ عطاء غيره بحساب ، وعطاؤه تعالى بغير حساب **قال المفسرون** : لما بيَّن أنَّ الإيمان والعمل الصالح هو الذي يقرب العبد إلى ربه ، ويكون مؤدياً إلى تضعيف حسناته ، بيَّن أن نعيم الآخرة لا ينافي سعة الرزق في الدنيا ، بل الصالحون قد يبسط لهم الرزق في الدنيا ، مع ما لهم في الآخرة من الجزاء الأوفى والمثوبة الحسنى بمقتضى الوعد الإلهي[٣] ﴿ويوم يحشرهم جميعاً﴾ أي واذكر يوم يحشر الله المشركين جميعاً من تقدم ومن تأخر للحساب والجزاء ﴿ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون﴾ ؟ الاستفهام للتقريع والتوبيخ للمشركين أي أهؤلاء عبدوكم من دوني وأنتم أمرتموهم بذلك ؟ **قال الزمخشري** : هذا الكلام خطاب للملائكة وتقريع للكفار ، وارد على المثل السائر « إيَّاكِ أعني واسمعي يا جارة » ونحوه قوله تعالى ﴿أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله﴾ ؟ وقد علم سبحانه أن الملائكة وعيسى منزهون عما نُسب اليهم ، والغرض من السؤال والجواب أن يكون تقريع المشركين أشد ، وخجلهم أعظم[٤] ﴿قالوا سبحانك أنت وليُّنا من دونهم﴾ أي تعاليت وتقدست يا ربنا عن أن يكون معك إله ، أنت ربنا ومعبودنا الذي نتولاه ونعبده ونخلص له العبادة ، ونحن نتبرأ إليك منهم ﴿بل كانوا يعبدون الجن﴾ أي بل كانوا يعبدون الشياطين لأنهم هم الذين زينوا لهم عبادة غير الله فأطاعوهم ﴿أكثرهم بهم مؤمنون﴾ **قال الطبري** : أي أكثرهم بالجنّ مصدقون يزعمون أنهم بنات الله ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً[٥] قال تعالى رداً على مزاعم المشركين ﴿فاليوم لا يملك بعضكم لبعضٍ نفعاً ولا ضراً﴾ أي ففي هذا اليوم - يوم الحساب - لا ينفع العابدون ولا المعبودون بعضهم لبعضٍ ، لا بشفاعة ونجاة ، ولا بدفع عذاب وهلاك ، **قال أبو السعود** : يخاطبون بذلك على رءوس الأشهاد إظهاراً لعجزهم وقصورهم عن نفع عابديهم ، وإظهاراً لخيبة رجائهم بالكلية ، ونسبة عدم النفع والضر إلى البعض للمبالغة في المقصود ، كأن نفع الملائكة لعبدتهم في الاستحالة كنفع العبدة لهم[٦] ﴿ونقول للذين ظلموا﴾ أي ونقول للظالمين الذين عبدوا غير الله ﴿ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون﴾ أي ذوقوا عذاب جهنم التي كذبتم بها في الدنيا فها قد وردتموها ، ثم بيَّن تعالى لوناً آخر من

---

(١) التسهيل ٣/ ١٥٢ . (٢) زاد المسير ٦/ ٤٤٢ . (٣) حاشية زاده على البيضاوي ٣/ ٩٣ .

(٤) الكشاف ٣/ ٤٦٣ . (٥) الطبري ٢٢/ ٦٩ . (٦) تفسير أبي السعود ٤/ ٢٣٤ .

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا﴾

كفرهم وضلالهم فقال : ﴿وإذا تُتلى عليهم آياتنا بينات﴾ أي وإذا تُليت على هؤلاء المشركين آيات القرآن واضحات المعاني ، بينات الإعجاز ، وسمعوها غضة طريةً من لسان رسولنا محمد ﷺ ﴿قالوا ما هذا إلا رجلٌ يريدُ أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم﴾ أي ما هذا الذي يزعم الرسالة إلا رجلٌ مثلكم يريد أن يمنعكم عمَّا كان يعبد أسلافكم من الأوثان والأصنام ﴿وقالوا ما هذا إلاّ إفكٌ مفترى﴾ أي ما هذا القرآن إلا كذبٌ مختلق على الله ﴿وقال الذين كفروا للحقّ لما جاءهم إنْ هذا إلا سحرٌ مبين﴾ أي وقال أولئك الكفرة المتمردون بجراءتهم على الله ومكابرتهم للحقّ النيّر : ما هذا القرآن إلا سحرٌ واضح ظاهر لا يخفى على لبيب قال الزمخشري : وفيه تعجيب من أمرهم بليغ ، حيث بتّوا القضاء على أنه سحر ، ثم بتّوه على أنه بيّن ظاهر ، كل عاقلٍ تأمله سمّاه سحراً وفي قوله ﴿لما جاءهم﴾ المبادهة بالكفر من غير تأمل[1] ، ثم بيّن تعالى أنهم لم يقولوا ذلك عن بينة ، ولم يكذبوا محمداً عن يقين ، بل عن ظنٍّ وتخمين فقال ﴿وما آتيناهم من كتُبٍ يدرسونها﴾ أي وما أنزلنا على أهل مكة كتاباً قبل القرآن يقرءون فيه ويتدارسونه ﴿وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير﴾ أي وما بعثنا إليهم قبلك يا محمد رسولاً ينذرهم عذاب الله ، فمن أين كذبوك ؟ قال الطبري : أي ما أنزل الله على العرب كتاباً قبل القرآن ، ولا بعث إليهم نبياً قبل محمد ﷺ[2] ﴿وكذّب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم﴾ أي وكذّب قبلهم أقوام من الأمم السابقين وما بلغ كفار مكة عشر ما آتينا الأمم التي كانت قبلهم من القوة والمال وطول العمر قال ابن عباس : ﴿معشار ما آتيناهم﴾ أي من القوة في الدنيا[3] ﴿فكذبوا رسلي فكيف كان نكير﴾ أي وحيث كذبوا رسلي جاءهم إنكاري بالتدمير والاستئصال ، ولم يغن عنهم ما كانوا فيه من القوة ، فكيف حال هؤلاء إذا جاءهم العذاب والهلاك ؟ وفيه تهديدٌ لقريش ﴿قل إنما أعظكم بواحدة﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين إنما أنصحكم وأوصيكم بخصلةٍ واحدة ثم فسرها بقوله ﴿أن تقوموا لله مثنى وفرادى﴾ أي هي أن تتحرَّوا الحق لوجه الله والتقرب له مجتمعين ووحداناً ، أو اثنين اثنين وواحداً واحداً قال القرطبي : وهذا القيام معناه القيام إلى طلب الحق ، لا القيام الذي هو ضدُّ القعود[4] ﴿ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جِنّة﴾ أي ثم تتفكروا في أمر محمد لتعلموا أن من ظهر على يديه هذا الكتاب المعجز لا يمكن

(١) الكشاف ٣/ ٤٦٤ . (٢) الطبري ٢٢/ ٧٠ وهذه رواية قتادة (٣) مختصر ابن كثير ٣/ ١٣٥ . (٤) القرطبي ١٤/ ٣١١ .

سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟

أن يكون به مسٌ من الجنون أو يكون مجنوناً قال أبو حيان : ومعنى الآية : إنما أعظكم بواحدة فيها إصابتكم الحقَّ وهي أن تقوموا لوجه الله متفرقين اثنين اثنين ، وواحداً واحداً ، ثم تتفكروا في أمر محمد وما جاء به ، وإنما قال ﴿مثنى وفرادى﴾ لأن الجماعة يكون مع اجتماعهم تشويش الخاطر والمنع من التفكر ، كما يكون في الدروس التي يجتمع بها الجماعة ، وأما الاثنان إذا نظرا نظر إنصاف وعرض كل واحدٍ منهما على صاحبه ما ظهر له فلا يكاد الحقُّ أن يعدوهما ، وإذا كان الواحد جيّد الفكر عرف الحق ، فإذا تفكروا عرفوا أن نسبته عليه السلام للجنون لا يمكن ، ولا يذهب الى ذلك عاقل[١] ﴿إن هو إلاّ نذيرٌ لكم بين يدي عذاب شديد﴾ أي ما هو إلا رسول منذر لكم إن كفرتم من عذاب شديدٍ في الآخرة ﴿قل ما سألتكم من أجرٍ فهو لكم﴾ أي لا أسألكم على تبليغ الرسالة أجراً قال الطبري : المعنى إني لم أسألكم على ذلك جعلاً فتتهموني وتظنوا أني إنما دعوتكم إلى اتباعي لمالٍ آخذه منكم[٢] ﴿إنْ أجري إلا على الله﴾ أي ما أجري وثوابي إلا على الله رب العالمين ﴿وهو على كل شيءٍ شهيد﴾ أي هو تعالى رقيب وحاضر على أعمالي وأعمالكم ، لا يخفى عليه شيء وسيجازي الجميع قال أبو السعود : أي هو مطلع يعلم صدقي وخلوص نيتي[٣] ﴿قل إنَّ ربي يقذف بالحقٌ﴾ أي يبيِّن الحجة ويظهرها قال ابن عباس : يقذف الباطل بالحق كقوله ﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق﴾ ﴿علام الغيوب﴾ أي هو تعالى الذي أحاط علماً بجميع الغيوب التي غابت وخفيت عن الخلق ﴿قل جاء الحقٌ﴾ أي جاء نور الحق وسطع ضياؤه وهو الإسلام ﴿وما يُبدىء الباطل وما يعيد﴾ أي ذهب الباطل بالمرَّة فليس له بدءٌ ولا عودٌ قال الزمخشري : إذا هلك الإنسان لم يبق له إبداءٌ ولا إعادة ، فجعلوا قولهم ﴿لا يبدىء ولا يعيد﴾ مثلاً في الهلاك والمعنى : جاء الحق وهلك الباطل كقوله تعالى ﴿وقل جاء الحق وزهق الباطل﴾[٤] ﴿قل إن ضللت فإنما أضل على نفسي﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين إن حصل لي ضلالٌ ـ كما زعمتم ـ فإن إثم ضلالي على نفسي لا يضر غيري ﴿وإن اهتديتُ فبما يوحي إليَّ ربي﴾ أي وإن اهتديتُ إلى الحق فبهداية الله وتوفيقه ﴿إنه سميع قريب﴾ أي سميعٌ لمن دعاه ، قريب الإجابة لمن رجاه قال أبو السعود : يعلم قول كلٍ من المهتدي والضال وفعله وإن بالغ في إخفائهما[٥] ﴿ولو ترى إذ فزعوا﴾ أي ولو ترى يا محمد حال المشركين عند فزعهم إذا خرجوا من قبورهم ﴿فلا فوت﴾ أي فلا مخلص لهم ولا مهرب

(١) البحر المحيط ٧/ ٢٠١ بشيء من الاختصار . (٢) الطبري ٢٢/ ٧١ . (٣) أبو السعود ٤/ ٢٣٥ .
(٤) الكشاف ٣/ ٤٦٧ . (٥) أبو السعود ٤/ ٢٣٥ .

مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾

﴿وأخذوا من مكان قريب﴾ أي أخذوا من الموقف ـ أرض المحشر ـ إلى النار ، وجواب ﴿لو﴾ محذوف تقديره : لرأيت أمراً عظيماً وخطباً جسيماً ترتعد له الفرائص ﴿وقالوا آمنا به﴾ أي وقالوا عندما عاينوا العذاب آمنا بالقرآن وبالرسول ﴿وأنّى لهم التناوش من مكانٍ بعيد﴾ أي ومن أين لهم تناول الإيمان وهم الآن في الآخرة ومحل الإيمان في الدنيا ، وقد ذهبت الدنيا فصارت منهم بمكان بعيد ؟ قال أبو حيان : مثّل حالهم بحال من يريد أن يتناول الشيء من بعدٍ كما يتناوله الآخر من قرب[1] ﴿وقد كفروا به من قبلُ﴾ أي والحال أنهم قد كفروا بالقرآن وبالرسول من قبل ذلك في الدنيا ، فكيف يحصل لهم الإيمان بهما في الآخرة ! ﴿ويقذفون بالغيب من مكانٍ بعيد﴾ أي يرمون بظنونهم في الأمور المغيبة فيقولون : لا بعث ولا حساب ، ولا جنة ولا نار قال القرطبي : والعربُ تقول لكل من تكلم بما لا يعرف هو يقذف ويرجم بالغيب ، على جهة التمثيل لمن يرمي ولا يصيب[2] ﴿وحيل بينهم وبين ما يشتهون﴾ أي وحيل بينهم وبين الإيمان ودخول الجنان ﴿كما فُعل بأشياعهم من قبل﴾ أي كما فعل بأشباههم في الكفر من الأمم السابقة ﴿إنهم كانوا في شكٍ مريب﴾ أي كانوا في الدنيا في شك وارتياب من أمر الحساب والعذاب ، وقوله ﴿مريب﴾ من باب التأكيد كقولهم عجبٌ عجيب .

البَلاَغَة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الطباق بين ﴿يبسط . . ويقدر﴾ وبين ﴿نفعاً . . وضراً﴾ وبين ﴿مثنى . . وفرادى﴾ .

٢ ـ المقابلة بين عاقبة الأبرار والفجار ﴿إلا من آمن وعمل صالحاً . . والذين يسعون في آياتنا معاجزين﴾ .

٣ ـ الالتفات من الغائب الى المخاطب ﴿وما أموالكم ولا أولادكم﴾ والغرض المبالغة في تحقيق الحق .

٤ ـ أسلوب التقريع والتوبيخ ﴿أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون﴾ ؟ الخطاب للملائكة تقريعاً للمشركين .

٥ ـ وضع الظاهر موضع الضمير لتسجيل جريمة الكفر عليهم ﴿وقال الذين كفروا للحق﴾ والأصل وقالوا .

---

(١) و(٢) البحر المحيط ٧/٢٩٣ .

٦ ـ الإيجاز بالحذف لدلالة السياق عليه ﴿ومـا أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى﴾ حذف خبر الأول لدلالة الثاني عليه أي ما أموالكم بالتي تقربكم ولا أولادكم بالذين يقربونكم عندنا .

٧ ـ الاستعارة ﴿بين يدي عذابٍ شديد﴾ استعار لفظ اليدين لما يكون من الأهوال والشدائد أمام الإنسان .

٨ ـ الكناية اللطيفة ﴿وما يبدىء الباطل وما يعيـد﴾ كناية عن زهوق الباطل ومحو أثره .

٩ ـ الاستعارة التصريحية ﴿ويقذفون بالغيب من مكان بعيد﴾ شبّه الذي يقول بغير علم ، ويظن ولا يتحقق ، بالإنسان يرمي غرضاً وبينه وبينه مسافة بعيدة فلا يكون سهمه صائباً واستعار لفظ القذف للقول .

١٠ ـ توافق الفواصل لما له من جميل الوقـع على السمع مثل ﴿إنا بما أرسلتم به كافرون • أكثر الناس لا يعلمون • وهم في الغرفات آمنون﴾ .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة سبأ »

* * *



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَة

* سورة فاطر مكية نزلت قبل هجرة رسول الله ﷺ ، فهي تسير في الغرض العام الذي نزلت من أجله الآيات المكية ، والتي يرجع أغلبها إلى المقصد الأول من رسالة كل رسول ، وهو قضايا العقيدة الكبرى « الدعوة إلى توحيد الله ، وإقامة البراهين على وجوده ، وهدم قواعد الشرك ، والحثّ على تطهير القلوب من الرذائل ، والتحلي بمكارم الأخلاق » .

* تحدثت السورة الكريمة في البدء عن الخالق المبدع ، الذي فطر الأكوان ، وخلق الملائكة والإنس والجان ، وأقامت الأدلة والبراهين على البعث والنشور ، في صفحات هذا الكون المنظور ، بالأرض تحيا بعد موتها،بنزول الغيث ، وبخروج الزروع والفواكه والثمار ، وبتعاقب الليل والنهار ، وفي خلق الإنسان في أطوار ، وفي إيلاج الليل في النهار ، وغير ذلك من دلائل القدرة والوحدانية .

* وتحدثت عن الفارق الكبير بين المؤمن والكافر ، وضربت لهما الأمثال بالأعمى والبصير ، والظلمات والنور ، والظل والحرور .

* ثم تحدثت عن دلائل القدرة في اختلاف أنواع الثمار ، وفي سائر المخلوقات من البشر والدواب والأنعام ، وفي اختلاف أشكال الجبال والأحجار ، وتنوعها ما بين أبيض وأسود وأحمر ، وكلها ناطقة بعظمة الواحد القهار .

* وتحدثت بعد ذلك عن ميراث هذه الأمة المحمدية لأشرف الرسالات السماوية ، بإنزال هذا الكتاب المجيد الجامع لفضائل كتب الله ، ثم انقسام الأمة إلى ثلاثة أنواع : « المقصِّر ، والمحسن ، والسابق بالخيرات » .

* وختمت السورة بتقريع المشركين في عبادتهم للأوثان والأصنام والأحجار .

التسمية : سميت « سورة فاطر » لذكر هذا الاسم الجليل ، والنعت الجميل في طليعتها ، لما في هذا الوصف من الدلالة على الإبداع والاختراع والإيجاد لا على مثالٍ سابق ، ولما فيه من التصوير الدقيق ،

المشير إلى عظمة ذي الجلال ، وباهر قدرته ، وعجيب صنعه ، فهو الذي خلق الملائكة وأبدع تكوينهم بهذا الخلق العجيب .

***

اللغة : ﴿فاطر﴾ الفاطر : الخالق ، وأصل الفطر الشَّق يقال : فطره فانفطر أي انشق ومنه « السماء منفطر به » وفطر اللهُ الخلق : خلقهم وبرأهم ﴿تؤفكون﴾ تُصرفون من الإفك بمعنى الكذب سمي إفكاً لأنه مصروف عن الحق والصواب ﴿حسرات﴾ جمع حسرة وهي الغم الذي يلحق النفس على فوات الأمر ، وفي المختار : الحسرةُ أشدُّ التلهف على الشيء الفاقد[1] ﴿النشور﴾ مصدر نشر الميت إذا حيي قال الأعشى :

حتى يقول الناس ممَّا رأوا يا عجباً للميّت الناشر

﴿يبور﴾ يهلك يقال : بار يبور أي هلك وبطل ، والبوار : الهلاك ﴿فرات﴾ حلو شديد الحلاوة ﴿أجاج﴾ شديد الملوحة قال في القاموس : أجَّ الماءُ أجوجاً إذا اشتدت ملوحته[2] ﴿قطمير﴾ القطمير : القشرة الرقيقة البيضاء التي بين التمرة والنواة .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ﴾

التفسير : ﴿الحمد لله فاطِر السموات والأرض﴾ أي الثناء الكامل ، والذكر الحسن ، مع التعظيم والتبجيل لله جلَّ وعلا ، خالق السموات والأرض ومنشئها ومخترعها من غير مثالٍ سبق قال البيضاوي : ﴿فاطر السموات والأرض﴾ أي مبدعهما وموجدهما على غير مثال[3] ﴿جاعل الملائكةِ رسلاً﴾ أي جاعل الملائكة وسائط بين الله وأنبيائه لتبليغهم أوامر الله قال ابن الجوزي : يرسلهم إلى الأنبياء وإلى ما شاء من الأمور[4] ﴿أولي أجنحةٍ مثْنى وثلاثَ ورُباع﴾ أي أصحاب أجنحة قال قتادة : بعضهم له جناحان ، وبعضهم له ثلاثة ، وبعضهم له أربعة ، ينزلون بها من السماء إلى الأرض ، ويعرجون بها إلى السماء[5] ﴿يزيد في الخلق ما يشاءُ﴾ أي يزيد في خلق الملائكة كيف يشاء ، من ضخامة الأجسام ، وتفاوت الأشكال ، وتعدد الأجنحة ، وقد رأى رسول الله ﷺ جبريل ليلة الإسراء وله ستمائة جناح ، بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب[6] وقال قتادة : ﴿يزيد في الخلق ما يشاء﴾ : الملاحةُ

---

(١) مختار الصحاح مادة حسر . (٢) القاموس المحيط مادة أجج . (٣) حاشية زاده على البيضاوي ٣/ ٩٨ . (٤) زاد المسير ٦/ ٤٧٣ .
(٥) القرطبي ١٤/ ٣١٩ . (٦) الحديث أخرجه مسلم عن ابن مسعود قال الزمخشري : « رأى رسول الله ﷺ جبريل في صورته له ستمائة جناح » .

﴿مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾

في العينين ، والحسنُ في الأنف ، والحلاوة في الفم[1] ﴿إن اللهَ على كل شيء قدير﴾ أي هو تعالى قادر على ما يريد ، له الأمر والقوة والسلطان ، لا يمتنع عليه فعل شيءٍ أراده ، ولا يتأبى عليه خلق شيء أراده ، وصف تعالى نفسه في هذه الآيات بصفتين جليلتين تحمل كل منهما صفة القدرة وكمال الإنعام الأولى : أنه فاطر السموات والأرض أي خالقهما ومبدعهما من غير مثالٍ يحتذيه ، ولا قانون ينتحيه ، وفي ذلك دلالة على كمال قدرته ، وشمول نعمته ، فهو الذي رفع السماء بغير عمد ، وجعلها مستويةً من غير أوَد . وزينها بالكواكب والنجوم ، وهو الذي بسط الأرض ، وأودعها الأرزاق والأقوات ، وبثَّ فيها البحار والأنهار ، وفجَّر فيها العيون والآبار ، إلى غير ما هنالك من آثار قدرته العظيمة ، وآثار صنعته البديعة ، وعبَّر عن ذلك كله بقوله ﴿فاطر السموات والأرض﴾ والثانية : اختيار الملائكة ليكونوا رسلاً بينه وبين أنبيائه ، وقد أشار إلى طرفٍ من عظمته وكمال قدرته جل وعلا بأن خلق الملائكة بأشكال عجيبة ، وصور غريبة ، وأجنحة عديدة ، فمنهم من له جناحان ومنهم من له ثلاثة ، ومنهم من له أربعة ، ومنهم من له ستمائة جناح ، ما بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب ، كما هو وصف جبريل عليه السلام ، ومنهم من لا يعلم حقيقة خلقته وضخامة صورته إلا الله جل وعلا ، فقد روى الزهري أن جبريل قال للنبي ﷺ : (يا محمد كيف لو رأيت إسرافيل! إنَّ له لاثنيْ عشر ألف جناح ، منها جناح بالمشرق وجناح بالمغرب ، وإن العرش لعلى كاهله)[2] ولو كشف لنا الحجاب لرأينا العجب العجاب ، فسبحان الله ما أعظم خلقه ، وما أبدع صنعه !! ثم بيَّن تعالى نفاذ مشيئته ، ونفوذ أمره في هذا العالم الذي فطره ومن فيه ، وأخضعه لإرادته وتصرفه فقال : ﴿ما يفتح اللهُ للناس من رحمةٍ فلا مُمسكَ لها﴾ أيْ أيُّ شيء يمنحه الله لعباده ويتفضل به عليهم من خزائن رحمته ، من نعمةٍ ، وصحةٍ ، وأمنٍ ، وعلمٍ ، وحكمةٍ ، ورزقٍ ، وإرسال رسلٍ لهداية الخلق ، وغير ذلك من صنوف نعمائه التي لا يحيط بها عدٌّ ، فلا يقدر أحدٌ على إمساكه وحرمان خلق الله منه ، فهو الملك الوهاب الذي لا مانع لما أعطى ، ولا معطي لما منع ﴿وما يُمْسكْ فلا مرسل له من بعده﴾ أيْ وأيُّ شيء يمسكه ويحبسه عن خلقه من خيري الدنيا والآخرة ، فلا أحد يقدر على منحه للعباد بعد أن أمسكه جل وعلا ﴿وهو العزيز الحكيم﴾ أي هو تعالى الغالب على كل شيء ، الحكيم في صنعه ، الذي يفعل ما يريد على مقتضى الحكمة والمصلحة قال المفسرون : والفتحُ والإمساك عبارة عن العطاء والمنع ، فهو الذي يضر وينفع ، ويعطي ويمنع ، وفي الحديث « أحقُّ ما قال العبد وكلُّنا لك عبد : اللهم لا مانع لما أعطيتَ ، ولا معطي لما منعتَ ، ولا ينفع ذا الجدِّ منك الجدّ »[3] ثم ذكَّرهم تعالى بنعمه الجليلة عليهم فقال ﴿يا أيها الناسُ اذكروا نعمة الله عليكم﴾ أي اشكروا ربكم على

(١) القرطبي ١٤/ ٣٢٠ والآية عامة تتناول كل زيادة في الخلق ، من طول قامة ، واعتدال صورة ، وحصافة في العقل ، وذلاقة في اللسان . وما أشبه ذلك مما لا يحيط به وصف . (٢) الكشاف ٣/ ٤٧٠ . (٣) جزء من حديث أخرجه مسلم في صحيحه .

﴿يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾

نعمه التي لا تُعدُّ ولا تُحْصى التي أنعم بها عليكم قال الزمخشري : ليس المراد بذكر النعمة ذكرها باللسان فقط ، ولكن المراد حفظها من الكفران ، وشكرها بمعرفة حقها ، والاعتراف بها ، وإطاعة موليها ، ومنه قول الرجل لمن أنعم عليه : أذكرْ أياديَّ عندك[1] ﴿هل من خالقٍ غير الله﴾ استفهام إنكاري بمعنى النفي أي لا خالق غيره تعالى ، لا ما تعبدون من الأصنام ﴿يرزقكم من السماء والأرض﴾ أي حال كونه تعالى هو المنعم على العباد بالرزق والعطاء ، فهو الذي ينزل المطر من السماء ، ويخرج النبات من الأرض ، فكيف تشركون معه ما لا يخلق ولا يرزق من الأوثان والأصنام ؟ ولهذا قال تعالى بعده ﴿لا إله إلا هو﴾ أي لا ربَّ ولا معبود إلا اللهُ الواحد الأحد ﴿فأنَّى تُؤفكون﴾ أي فكيف تُصرفون بعد هذا البيان ، ووضوح البرهان ، إلى عبادة الأوثان ؟ والغرض : تذكير الناس بنعم الله ، وإقامة الحجة على المشركين قال ابن كثير : نبه تعالى عباده وأرشدهم إلى الاستدلال على توحيده ، بوجوب إفراد العبادة له ، فكما أنه المستقل بالخلق والرزق ، فكذلك يجب أن يُفرد بالعبادة ، ولا يُشرك به غيره من الأصنام والأوثان[2] ﴿وإن يكذبوك فقد كُذبت رسلٌ من قبلك﴾ تسلية للنبي ﷺ على تكذيب قومه له والمعنى : وإن يكذبك يا محمد هؤلاء المشركون فلا تحزن لتكذيبهم ، فهذه سنة الله في الأنبياء من قبلك ، فقد كُذِّبوا وأُوذوا حتى أتاهم نصرنا ، فلك بهم أسوة ، ولا بدَّ أن ينصرك الله عليهم ﴿وإلى الله تُرجع الأمور﴾ أي إلى الله تعالى وحده مرجع أمرك وأمرهم ، وسيجازي كلاً بعمله ، وفيه وعيد وتهديد للمكذبين . ثم ذكَّرهم تعالى بذلك الموعد المحقَّق فقال ﴿يا أيها الناسُ إنَّ وعد اللهِ حق﴾ أي إن وعده لكم بالبعث والجزاء حقٌّ ثابتٌ لا محالة لا خُلف فيه ﴿فلا تغرنكم الحياة الدنيا﴾ أي فلا تلهكم الحياة الدنيا بزخرفها ونعيمها عن الحياة الآخرة قال ابن كثير : أي لا تتلهَّوا عن تلك الحياة الباقية ، بهذه الزهرة الفانية[3] ﴿ولا يغرنَّكمْ باللهِ الغَرُور﴾ أي ولا يخدعنكم الشيطان المبالغ في الغرور فيطمعكم في عفو الله وكرمه ، ويمنيكم بالمغفرة مع الإصرار على المعاصي . ثم بيَّن تعالى عداوة الشيطان للإنسان فقال: ﴿إنَّ الشيطانَ لكم عدوٌّ فاتخذوه عدُوّاً﴾ أي إن الشيطان لكم أيها الناس عدوٌّ لدود ، وعداوته قديمة لا تكاد تزول فعادوه كما عاداكم ولا تطيعوه ، وكونوا على حذرٍ منه قال بعض العارفين : يا عجباً لمن عصى المحسن بعد معرفته بإحسانه ، وأطاع اللعين بعد معرفته بعداوته ﴿إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾ أي إنما غرضه أن

(١) الكشاف ٣/ ٤٧١ . (٢) مختصر ابن كثير ٣/ ١٣٩ . (٣) مختصر ابن كثير ٣/ ١٣٩ .

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَـٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾﴾

يقذف بأتباعه في نار جهنم المستعرة التي تشوي الوجوه والجلود ، لا غرض له إلا هذا ، فهل يليق بالعاقل أن يستجيب لنداء الشيطان اللعين ؟ قال الطبري : أي إنما يدعو شيعته ليكونوا من المخلدين في نار جهنم التي تتوقد على أهلها[1] ﴿الذين كفروا لهم عذاب شديد﴾ أي الذين جحدوا بالله ورسله لهم عذاب دائم شديد لا يُقادر قدره ، ولا يوصف هولُه ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ﴿لهم مغفرةٌ وأجر كبير﴾ أي لهم عند ربهم مغفرةٌ لذنوبهم ، وأجر كبير وهو الجنة ، وإنما قرن الإيمان بالعمل الصالح ليشير إلى أنهما لا يفترقان ، فالإيمان تصديقٌ ، وقول ، وعمل ﴿أفمنْ زُيّن له سوء عمله فرآه حسناً﴾ الاستفهام للإنكار وجوابه محذوف والتقدير أفمن زيِّن له الشيطان عمله السيء حتى رآه حسناً[2] واستحسن ما هو عليه من الكفر والضلال ، كمن استقبحه واجتنبه واختار طريق الإيمان ؟ ودلَّ على هذا الحذف قوله تعالى ﴿فإنَّ الله يضلُّ من يشاء ويهدي من يشاء﴾ أي الكلُّ بمشيئة الله ، فهو تعالى الذي يصرف من يشاء عن طريق الهدى ، ويهدي من يشاء بتوفيقه للعمل الصالح والإيمان ﴿فلا تذهبْ نفسك عليهم حسرات﴾ أي فلا تغتمَّ يا محمد ولا تُهلك نفسك حسرةً على تركهم الإيمان ﴿إن الله عليمٌ بما يصنعون﴾ أي هو جل وعلا العالم بما يصنع هؤلاء من القبائح ومجازيهم عليها ، وفيه وعيد لهم بالعقاب على سوء صنيعهم ﴿واللهُ الذي أرسلَ الرياح﴾ أي والله تعالى بقدرته هو الذي أرسل الرياح مبشرة بنزول المطر ﴿فتثير سحاباً﴾ أي فحركت السحاب وأهاجته ، والتعبيرُ بالمضارع عن الماضي ﴿فتثيرُ﴾ لاستحضار تلك الصورة البديعة ، الدالة على كمال القدرة والحكمة[3] ﴿فسقناه إلى بلدٍ ميِّت﴾ أي فسقنا السحاب الذي يحمل الغيث إلى بلدٍ مجدب قاحل ﴿فأحيينا به الأرض بعد موتها﴾ فيه حذفٌ تقديره فأنزلنا به الماء فأحيينا به الأرض بعد جدبها ويبسها ﴿كذلك النشور﴾ أي كما أحيا الله الأرض الميتة بالماء ، كذلك يحيي الموتى من قبورهم ، روى الإمام أحمد عن أبي رُزين العقيلي قال قلت يا رسول الله : كيف يُحْيي اللهُ الموتى ؟ وما آيةُ ذلك في خلقه ؟ فقال : (أما مررتَ بوادي أهلك مُمحلاً ، ثم مررتَ به يهتز خضراً ؟ قلت : نعم يا رسول الله ، قال : فكذلك يُحْيي اللهُ الموتى ، وتلك آيتُه في خلقه)[4] قال ابن كثير : كثيراً ما يستدل تعالى على المعاد بإحيائه الأرض بعد موتها ، فإن الأرض تكون ميتة هامدة لا نبات فيها ، فإذا أرسل الله إليها السحاب تحمل الماء وأنزله عليها

(١) تفسير الطبري ٢٢/ ٧٨ . (٢) انظر الكشاف ٣/ ٤٧٤ . (٣) أبو السعود ٤/ ٢٣٩ . (٤) أخرجه أحمد وأبو داود وابن ماجه .

مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ

﴿اهتـزّتْ وربتْ وأنبتت من كل زوج بهيج﴾ كذلك الأجساد إذا أراد الله بعثها ونشورها[١] ، ثمَّ نبَّه تعالى عباده إلى السبيل الذي تُنال به العزة فقال ﴿مـن كـان يريدُ العـزة فللّهِ العـزةُ جميعـاً﴾ أي من كان يطلب العزة الكاملة ، والسعادة الشاملة ، فليطلبها من الله تعالى وحده ، فإن العزة كلَّها لله جل وعلا قال بعض العارفين : من أراد عزَّ الدارين فليطع العزيز[٢] ﴿إليـه يَصعَـد الكَلِـمُ الطيِّب﴾ أي إليه جلَّ وعلا يرتفع كل كلام طيب من ذكر ، ودعاءٍ ، وتلاوة قرآن ، وتسبيح وتمجيد ونحوه قال الطبري : إلى الله يصعد ذكرُ العبد إيَّاه وثناؤ ه عليه ﴿والعملُ الصالـح يرفعـه﴾ أي والعمل الصالح يتقبله الله تعالى ويثيب صاحبه عليه قال قتادة : لا يقبل الله قولاً إلاَّ بعمل ، من قال وأحسن العمل قبل الله منه ، نقله الطبري ﴿والذيـن يمكـرون السيئـاتِ لهم عـذابٌ شديد﴾ هذا بيانٌ للكلم الخبيث بعد بيان حال الكلام الطيب أي والذين يحتالون بالمكر والخديعة لإطفاء نور الله ، والكيد للإسلام والمسلمين ، لهم في الآخرة عذاب شديد في نار جهنم ﴿ومكـر أُولئـك هو يبـور﴾ أي ومكر أولئك المجرمين هالكٌ وباطل ، لأنه ما أسرَّ أحد سوءاً ودبَّره إلا أبداه الله وأظهره ﴿ولا يحيـق المكر السيء إلا بأهلـه﴾ قال المفسرون : والإشارة هنا إلى مكر قريش برسول الله ﷺ حين اجتمعوا في دار الندوة وأرادوا أن يقتلوه ، أو يحبسوه ، أو يخرجوه كما حكى القرآن الكريم ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أويُخْـرجوك﴾[٣] ثم ذكَّرهم تعالى بدلائل التوحيد والبعث ، بعد أن ذكَّرهم بآيات قدرته وعزته فقال ﴿والله خلقكـم مـن تـراب﴾ أي خلق أصلكم وهو آدم من تراب ﴿ثـم من نطفـة﴾ أي ثم خلق ذريته من ماءٍ مهين وهو المنيُّ الذي يُصبُّ في الرحـم ﴿ثـم جعلـكـم أزواجـاً﴾ أي خلقـكم ذكوراً وإناثـاً ، وزوَّج بعضـكم من بعضٍ ليتـم البقـاء في الـدنيا إلى انقضائها[٤] قال الطبـري : أي زوَّج منهـم الأنثـى من الـذكر[٥] ﴿ومـا تحمـل من أنثـى ولا تضـع إلا بعلمـه﴾ أي وما تحمل أنثى في بطنها من جنين ، ولا تلد إلاَّ بعلمه تعالى ، يعلم أذكر هو أو أُنثى ، ويعلم أطوار هذا الجنين في بطن أمه ، لا يخفى عليه شيء من أحواله ﴿ومـا يُعمَّـر مـن مُعمَّـر ولا يُنقصُ من عُمُـره إلا في كتـاب﴾ أي وما يطول عُمر أحدٍ من الخلق فيصبح هرماً ، ولا يُنقص من عُمر أحد فيموت وهو صغير أو شاب إلا وهو مسجَّل في اللوح المحفوظ ، لا يُزاد فيما كتب الله ولا يُنقص ﴿إن ذلـك علـى الله يسيـر﴾ أي سهلٌ هيِّن ، لأن الله قد أحاط بكل شيء علماً ، ثم ضرب تعالى مثلاً للمؤمن والكافر

(١) مختصر ابن كثير ٣/ ١٤٠ . (٢) القرطبي ١٤/ ٣٢٩ . (٣) انظر الكشاف ٣/ ٤٧٦ . (٤) القرطبي ١٤/ ٣٣٢ . (٥) الطبري ٢٢/ ٨١ .

عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ

فقال : ﴿وما يستوي البحران﴾ أي وما يستوي ماء البحر وماء النهر[1] ﴿هذا عذبٌ فرات سائغ شرابُه﴾ أي هذا ماء حلوٌ شديد الحلاوة يكسر وهج العطش ، ويسهل انحداره في الحلق لعذوبته ﴿وهذا ملح أجاج﴾ أي وهذا ماءٌ شديد الملوحة ، يُحرق حلق الشارب لمرارته وشدة ملوحته ، فكما لا يتساوى البحران : العذبُ ، والملح ، فكذلك لا يتساوى المؤمن مع الكافر ، ولا البرُّ مع الفاجر قال أبو السعود : هذا مثلٌ ضربٌ للمؤمن والكافر ، والفراتُ الذي يكسر العطش ، والسائغ الذي يسهل انحداره لعذوبته ، والأجاج الذي يُحرق بملوحته[2] ﴿ومن كلٍ تأكلون منه لحماً طرياً﴾ أي ومن كل واحدٍ منهما تأكلون سمكاً غضاً طرياً ، مختلف الأنواع والطعوم والأشكال ﴿وتستخرجون حليةً تلبسونها﴾ أي وتستخرجون منهما اللؤلؤ والمرجان للزينة والتحلي ﴿وترى الفُلْك مواخر فيه﴾ أي وترى أيها المخاطب السفن العظيمة ، تمخرُ عُباب البحر مقبلة ومدبرة ، تحمل على ظهرها الأثقال والبضائع والرجال ، وهي لا تغرق فيه لأنها بتسخير الله جل وعلا[3] ﴿لتبتغوا من فضله﴾ أي لتطلبوا بركوبكم هذه السفن العظيمة من فضل الله بأنواع التجارات ، والسفر إلى البلدان البعيدة في مدة قريبة ﴿ولعلكم تشكرون﴾ أي ولكي تشكروا ربكم على إنعامه وإفضاله في تسخيره ذلك لكم ، ثم انتقل إلى آية أخرى من آيات قدرته وسلطانه في الآفاق فقال ﴿يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل﴾ أي يدخل الليلَ في النهار ، ويدخل النهار في الليل ، فيضيف من هذا إلى هذا وبالعكس ، فيتفاوت بذلك طول الليل والنهار بالزيادة والنقصان ، حسب الفصول والأمصار ، حتى يصل النهار صيفاً - في بعض البلدان - إلى ست عشرة ساعة ، وينقص الليل حتى يصل الى ثماني ساعات - آيةً من آيات الله تُشاهد لا يستطيع إنكارها جاحد أو مؤمن ، ويحس بآثارها الأعمى والبصير . . آيةٌ شاهدة على قدرة الله ، ودقة تصرفه في خلقه ، وهذه الظاهرة الكونية دستور لا يتغيَّر ، ونظام محكم لا يأتي بطريق الصدفة ، وإنما هو من صنع الله الذي أتقن كل شيء خلقه ، فسبحان المدبر الحكيم العليم ! ! ﴿وسخَّر الشمس والقمر كلٌ يجري لأجلٍ مسمًّى﴾ أي ذلَّلهما لمصالح العباد ، كل منهما يسير ويدور في مداره الذي قدَّره الله له لا يتعداه ، إلى أجلٍ معلوم هو يوم القيامة[4] ﴿ذلكم اللهُ ربكم له المُلْك﴾ أي ذلكم الفاعل لهذه الأمور

---

(١) سمي النهر بحراً من باب التغليب . (٢) تفسير أبي السعود ٤/ ٢٤١ . (٣) راجع نظرية طفو الأجسام والإعجاز العلمي للقرآن الكريم . (٤) كان المظنون أن الشمس ثابتة في موضعها ولكن أثبت العلم الحديث أنها تجري في اتجاه واحد في الفضاء الكوني الهائل بسرعة حسبها الفلكيون باثني عشر ميلاً في الثانية ، والله الخبير العليم يخبر بسيرها وجريانها « والشمس تجري لمستقر لها » . وحين نتصور أن حجم هذه الشمس يبلغ نحو مليون ضعف حجم أرضنا هذه ، وأن هذه الكتلة الهائلة تتحرك وتجري في الفضاء لا يسندها شيء إلا هو ، ندرك طرفاً من صفة القدرة التى تصرِّف هذا الوجود عن قوة وعن علم . تفسير الجوهري .

وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾

البديعة ، هو ربكم العظيم الشأن ، الذي له المُلك والسلطان والتصرف الكامل في الخلق ﴿والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير﴾ أي والذين تعبدون من دون الله من الأوثان والأصنام لا يملكون شيئاً ولو بمقدار القطمير ، وهو القشرة الرقيقة التي بين التمرة والنواة قال المفسرون : وهو مثلٌ يضرب في القلة والحقارة ، والأصنامُ لضعفها،وهَوان شأنها وعجزها عن أي تصرف صارت مضرب المثل في حقارتها بأنها لا تملك فتيلاً ولا قطميراً ، ثم أكد تعالى ذلك بقوله ﴿إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم﴾ أي إن دعوتم هذه الأصنام لم يسمعوا دعاءكم ولم يستجيبوا لندائكم ، لأنها جمادات لا تسمع ولا تفهم ﴿ولو سمعوا ما استجابوا لكم﴾ أي ولو سمعوا لدعائكم - على الفرض والتسليم - ما استجابوا لكم لأنها ليست ناطقة فتجيب ﴿ويوم القيامة يكفرون بشرككم﴾ أي وفي الآخرة حين ينطقهم الله يتبرءون منكم ومن عبادتكم إياهم ﴿ولا ينبئك مثلُ خبير﴾ أي ولا يخبرك يا محمد على وجه اليقين أحدٌ إلا أنا - الله - الخالق العليم الخبير قال قتادة : يعني نفسه عز وجل .

البَلاَغَة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ - الاستعارة التمثيلية ﴿ما يفتح الله للناس من رحمةٍ فلا ممسك لها﴾ شبَّه فيه إرسال النعم بفتح الخزائن للإعطاء وكذلك حبس النعم بالإمساك ، واستعير الفتح للإطلاق والإمساك للمنع .

٢ - الطباق بين ﴿يفتح . . ويمسك﴾ وكذلك بين ﴿يضل . . ويهدي﴾ وبين ﴿تحمل . . وتضع﴾ وبين ﴿يُعمَّر . . وينقص من عمره﴾ .

٣ - المقابلة بين جزاء الأبرار والفجار ﴿الذين كفروا لهم عذاب شديد . . والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير﴾ وكذلك بين قوله ﴿هذا عذب فرات . . وهذا ملح أجاج﴾ وكل من الطباق والمقابلة من المحسنات البديعية إلا أن الأول يكون بين شيئين والثاني بين أكثر .

٤ - حذف الجواب لدلالة اللفظ عليه ﴿أفمن زُين له سوء عمله فرآه حسناً﴾ ؟ حذف منه ما يقابله أي كمن لم يُزين له سوء عمله ؟ ودل على هذا المحذوف قوله ﴿فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء﴾ .

٥ - الإطناب بتكرار الفعل ﴿فلا تغرنكم الحياةالدنيا . .ثم قال. .ولا يغرنكم بالله الغرور﴾ .

٦ - الكناية ﴿فلا تذهب نفسك عليهم حسرات﴾ كناية عن الهلاك لأن النفس إذا ذهبت هلك الإنسان .

٧ ـ الالتفات من الغيبة إلى التكلم للإشعار بالعظمة ﴿أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه﴾ .

٨ ـ السجع لماله من وقع حسن على السمع مثل ﴿ليكونوا منْ أصحاب السعير﴾ ﴿لهم مغفرة وأجر كبير﴾ وأمثال ذلك وهو من المحسنات البديعية .

* * *

المناسبة : لمّا عدَّد تعالى نعمه على العباد ، وأقام الأدلة والبراهين على قدرته وعزته وسلطانه ، ذكَّرهم هنا بحاجتهم إليه ، واستغنائه جل وعلا عن جميع الخلق ، وضرب الأمثال للتفريق بين المؤمن والكافر ، والبر والفاجر ، بالأعمى والبصير ، والظلام والنور ، « فبضدّها تتميز الأشياء » .

اللغة : ﴿وزر﴾ الوزرُ : الجبل المنيع الذي يعتصم به ومنه « كلا لا وَزَر » ثم قيل للثقيل وِزْرٌ تشبيهاً له بالجبل ، ثم استعير للذنب لما فيه من إثقال كاهل الإنسان ﴿تنذر﴾ تخوف ، والإنذار التخويف ﴿الغيب﴾ ما غاب عن الإنسان ولم تدركه حواسه قال الشاعر :

وبالغيب آمنا وقد كان قومنا يُصلُّون للأوثان قبل محمد

﴿الحَرور﴾ شدة حر الشمس قال في المصباح : الحرُّ خلاف البرد والاسم الحرارة ، وحرَّت النار : توقَّدت واستعرت ، والحَرور : الريح الحارة[1] ﴿جُدد﴾ جمع جدَّة بالضم وهي الطريقة والعلامة قال الجوهري : والجُدَّة : الخُطَّة التي في ظهر الحمار تخالف لونه ، والجُدة الطريقة والجمع جدد وهي الطرائق المختلفة الألوان[2] ، قال القرطبي : قال الأخفش : لو كان جمع جديد لقال « جُدُد » بضم الجيم والدال نحو سرُر ﴿غرابيب﴾ جمع غربيب وهو الشديد السواد ، يقال : أسود غربيب أي شديد السواد قال امرؤ القيس :

العينُ طامحةٌ ، واليدُ سابحةٌ والرجلُ لافحةٌ ، والوجه غربيب[3]

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ﴾

التفسير : ﴿يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله﴾ الخطاب لجميع البشر لتذكيرهم بنعم الله الجليلة عليهم أي أنتم المحتاجون إليه تعالى في بقائكم وكل أحوالكم ، وفي الحركات والسكنات ﴿والله هو الغني الحميد﴾ أي وهو جل وعلا الغنيُّ عن العالم على الإطلاق ، المحمودُ على نعمه التي لا تُحصى قال أبو حيان : هذه آيةُ موعظةٍ وتذكير ، وأن جميع الناس محتاجون إلى إحسان الله تعالى وإنعامه ، في جميع أحوالهم ، لا يستغني أحدٌ عنه طرفة عين ، وهو الغنيُّ عن العالم على الإطلاق ، المحمود على ما يسديه من النعم ، المستحق للحمد والثناء[4] ، ثم قرر استغناءه عن الخلق بقوله ﴿إن يشأ يُذهبْكم ويأتِ بخلقٍ جديد﴾ أي لو شاء تعالى لأهلككم وأفناكم وأتى بقومٍ آخرين غيركم ، وفي هذا وعيدٌ وتهديد

(١) المصباح المنير . (٢) الصحاح للجوهري . (٣) تفسير القرطبي ١٤/ ٣٤٣ . (٤) البحر المحيط ٧/ ٣٠٧ .

جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَـٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾

﴿وما ذلك على الله بعزيز﴾ أي وليس ذلك بصعبٍ أو ممتنع على الله ، بل هو سهل يسير عليه سبحانه ، لأنه يقول للشيء كنْ فيكون ﴿ولا تزر وازرةٌ وِزْرَ أُخرى﴾ أي لا تحمل نفسٌ آثمةٌ إثم نفسٍ أخرى ، ولا تعاقب بذنبٍ غيرها كما يفعل جبابرة الدنيا من أخذ الجار بالجار ، والقريب بالقريب[1] ﴿وإن تدْعُ مُثقلةٌ إلى حِمْلِها لا يُحمل منه شيءٌ ولو كان ذا قُربى﴾ أي وإن تدع نفس مثقلةٌ بالأوزار أحداً ليحمل عنها بعض أوزارها لا يتحمل عنها ولو كان المدعو قريباً لها كالأب والابن ، فلا غياثَ يومئذٍ لمن استغاث ، وهو تأكيد لما سبق في أن الإنسان لا يتحمل ذنب غيره قال الزمخشري : فإن قلت فما الفرق بين الآيتين ؟ قلت : الأول في الدلالة على عدل الله تعالى في حكمه ، وأنه تعالى لا يؤاخذ نفساً بغير ذنبها ، والثاني في أنه لا غياث يومئذٍ لمن استغاث[2] ﴿إنما تُنذر الذين يَخْشون ربَّهم بالغيب﴾ أي إنما تنذر يا محمد بهذا القرآن الذين يخافون عقاب ربهم يوم القيامة ﴿وأقاموا الصلاة﴾ أي وأدوا الصلاة على الوجه الأكمل ، فضموا إلى طهارة نفوسهم طهارة أبدانهم بالصلاة المفروضة في أوقاتها ﴿ومن تزكّى فإنما يتزكّى لنفسه﴾ أي ومن طهَّر نفسه من أدناس المعاصي فإنما ثمرة ذلك التطهر عائدة عليه ، فصلاحه وتقواه مختص به ولنفسه ﴿وإلى اللهِ المصير﴾ أي إليه تعالى وحده مرجع الخلائق يوم القيامة فيجازي كلاً بعمله ، وهو إخبار متضمنٌ معنى الوعيد ﴿وما يستوي الأعمى والبصير﴾ هذا مثلٌ ضربه الله للمؤمن والكافر[3] أي كما لا يتساوى الأعمى مع البصير فكذلك لا يتساوى المؤمن المستنير بنور القرآن ، والكافر الذي يتخبط في الظلام ، ﴿ولا الظلماتُ ولا النور﴾ أي لا يتساوى كذلك الكفر والإيمان ، كما لا يتساوى النور والظلام ﴿ولا الظلُّ ولا الحرور﴾ أي وكذلك لا يستوي الحقُّ والباطل ، والهدى والضلال كما لا يستوي الظل الظليل مع شدة حر الشمس المتوهجة قال المفسرون : ضرب الله الظل مثلاً للجنة وظلها الظليل ، وأشجارها اليانعة تجري من تحتها الأنهار ، كما جعل الحرور مثلاً للنار وسعيرها ، وشدة أوارها وحرها ، وجعل الجنة مستقراً للأبرار ، والنار مستقراً للفجار كما قال تعالى ﴿لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة﴾ ثم أكد ذلك فقال ﴿وما يستوي الأحياء ولا الأموات﴾ أي كما لا يستوي العقلاء والجهلاء قال أبو حيان : وترتيب هذه الأشياء في بيان عدم الاستواء جاء في غاية الفصاحة ، فقد ذكر الأعمى والبصير مثلاً للمؤمن والكافر ، فذكر ما عليه الكافر من ظلمة الكفر ، وما عليه المؤمن من نور الإيمان ، ثم ذكر مآلهما وهو الظلُّ والحرور ، فالمؤمن بإيمانه في ظل وراحة ، والكافر

(١) نفس المرجع السابق والصفحة . (٢) الكشاف ٣/ ٤٧٩ . (٣) البحر المحيط ٧/ ٣٠٨ .

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ۖ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾

بكفره في حر وتعب ، ثم ذكر مثلاً آخر على أبلغ وجه وهو الحيُّ والميت ، فالأعمى قد يكون فيه بعض النفع بخلاف الميت ، وجمع الظلمات لأن طرق الكفر متعددة ، وأفرد النور لأن التوحيد والحق واحدٌ لا يتعدد ، وقدَّم الأشرف في المثلين الأخيرين وهما « الظل ، والحيُّ » وقدَّم الأوضح في المثلين الأولين وهما « الأعمى ، والظلمات » ليظهر الفرق جلياً ، ولا يقال ذلك لأجل السجع لأن معجزة القرآن ليست في مجرد اللفظ ، بل في المعنى أيضاً ، فلله سرُّ القرآن[1] ، ثم زاد في الإيضاح والبيان فقال ﴿إنَّ اللهَ يُسمع من يشاءُ وما أنت بمسمعٍ من في القبور﴾ أي إن الله يسمع من يشاء إسماعه دعوة الحق ، فيحبِّبه بالإيمان ويشرح صدره للإسلام ، وما أنت يا محمد بمسمع هؤلاء الكفار ، لأنهم أموات القلوب لا يدركون ولا يفقهون قال ابن الجوزي : أراد بمن في القبور الكفار ، وشبههم بالموتى[2] ، أي فكما لا يقدر أن يسمع من في القبور كتاب الله وينتفع بمواعظه ، فكذلك من كان ميّت القلب لا ينتفع بما يسمع[3] ﴿إن أنتَ إلا نذير﴾ أي ما أنتَ إلا رسول منذر ، تخوّف هؤلاء الكفار من عذاب النار ﴿إنّا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً﴾ أي بعثناك بالهدى ودين الحق ، بشيراً للمؤمنين ونذيراً للكافرين ﴿ وإنْ من أمةٍ إلا خلا فيها نذير﴾ أي ما من أمةٍ من الأمم في العصور والأزمنة الخالية إلا وقد جاءها رسول ﴿وإن يُكذبوك فقد كذَّب الذين من قبلهم﴾ تسلية للنبي ﷺ للتأسي بالأنبياء في الصبر على تحمل الأذى والبلاء قال الطبري : أي وإن يكذبك يا محمد هؤلاء المشركون من قومك فقد كذب الذين من قبلهم من الأمم السابقة رسلهم ﴿جاءتهم رسلُهم بالبينات﴾ أي جاءتهم الرسل بالمعجزات البينات ، والحجج الواضحات فكذبوهم وأنكروا ما جاءوا به من عند الله[4] ﴿وبالزُّبر وبالكتاب المنير﴾ أي وجاءوهم بالزُّبُر أي الصحف المنزلة على الأنبياء ، وبالكتب السماوية المقدسة المنيرة الموضحة وهي أربعة « التوراة ، والإنجيل ، والزبور ، والفرقان » ومع ذلك كذبوهم وردّوا عليهم رسالتهم فاصبر كما صبروا ﴿ثم أخذتُ الذين كفروا﴾ أي ثم بعد إمهالهم أخذتُ هؤلاء الكفار بالهلاك والدمار ﴿فكيف كان نكير﴾ أي فكيف كانت عقوبتي لهم وإنكاري عليهم ؟ ألم آخذهم أخذ عزيز مقتدر ؟ ألم أبدِّل نعمتهم نقمة ، وسعادتهم شقاوة ، وعمارتهم خراباً ؟ وهكذا أفعل بمن كذَّب رسلي ، ثم عاد إلى تقرير وحدانية الله بالأدلة السماوية والأرضية فقال ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً﴾ أي ألم تر أيها

(١) البحر المحيط ٧/ ٣٠٩ بشيء من الإيجاز والتصرف . (٢) تفسير ابن الجوزي ٦/ ٤٨٤ . (٣) تفسير الطبري ٢٢/ ٨٥ .
(٤) تفسير الطبري ٢٢/ ٨٦ .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾

المخاطب أن الله العظيم الكبير الجليل أنزل من السحاب المطر بقدرته[1] ؟ ﴿فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها﴾ أي فأخرجنا بذلك الماء أنواع النباتات والفواكه والثمار ، المختلفات الأشكال والألوان والطعوم قال الزمخشري : أي مختلف أجناسها من الرمان والتفاح والتين والعنب وغيرها مما لا يُحصر، أو هيئاتها من الحمرة والصفرة والخضرة ونحوها[2] ﴿ومن الجبال جُددٌ بيضٌ وحمرٌ مختلف ألوانها﴾ أي وخلق الجبال كذلك فيها الطرائق المختلفة الألوان ـ وإن كان الجميع حجراً أو تراباً ـ فمن الجبال جُدَد ـ أي طرائق ـ مختلفة الألوان ، بيضٌ مختلفة البياض ، وحمر مختلفة في حمرتها ﴿وغرابيبُ سودٌ﴾ أي وجبال سودٌ غرابيب أي شديدة السواد ، قال ابن جزي : قدَّم الوصف الأبلغ وكان حقه أن يتأخر ، وذلك لقصد التأكيد وكثيراً ما يأتي مثلُ هذا في كلام العرب[3] ، والغرضُ بيان قدرته تعالى ، فليس اختلاف الألوان قاصراً على الفواكه والثمار بل إن في طبقات الأرض وفي الجبال الصلبة ما هو أيضاً مختلف الألوان[4] ، حتى لتجد الجبل الواحد ذا ألوانٍ عجيبة ، وفيه عروق تشبه المرجان ، ولا سيما في صخور « المرمر » فسبحان القادر على كل شيء ﴿ومن الناسِ والدوابُ والأنعام مختلفٌ ألوانُه كذلك﴾ أي ويخلق من الناس ، والدواب ، والأنعام ، خلقاً مختلفاً ألوانه كاختلاف الثمار والجبال ، فهذا أبيض ، وهذا أحمر ، وهذا أسود ، والكلُّ خلق الله فتبارك الله أحسن الخالقين . ثم لما عدَّد آياتِ الله ، وأعلام قدرته ، وآثار صنعه ، وما خلق من الفطر المختلفة الأجناس أتبع ذلك بقوله ﴿إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ﴾ أي إنما يخشاه تعالى العلماء لأنهم عرفوه حقَّ معرفته ، قال ابن كثير : أي إنما يخشاه حقَّ خشيته العلماء العارفون به ، لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير أتم ، والعلم به أكمل ، كانت الخشية له أعظم وأكثر[5] ﴿إن الله عزيزٌ غفور﴾ أي غالب على كل شيء بعظمته ، غفور لمن تاب وأناب من عباده ، ثم أخبر عن صفات هؤلاء الذين يخافون الله ويرجون رحمته فقال ﴿إن الذين يتلون كتاب الله﴾ أي

---

(١) الآية سيقت للحث والتحريض على النظر في عجائب صنعه تعالى ، وآثار قدرته ليؤدي ذلك إلى العلم بعظمة الله وجلاله ، ويؤدي العلم إلى خشيته ولذلك ختمها بقوله ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ فتدبر سرّ القرآن . (٢) تفسير الكشاف ٣/ ٤٨١ . (٣) التسهيل ٣/ ١٥٨ . (٤) يقول شهيد الإسلام في تفسيره الظلال : هذه لفتة كونية عجيبة من اللفتات الدالة على مصدر هذا الكتاب ، تبدأ بإنزال الماء من السماء ، وإخراج الثمرات المختلفات الألوان ، ثم تنتقل إلى ألوان الجبال ، ففي ألوان الصخور شبه عجيب بألوان الثمار وتنوعها وتعددها ، واللفتة إلى ألوان الصخور وتنوعها داخل اللون الواحد ، تهز القلب هزاً ، وتوقظ فيه حاسة الذوق الجمالي العالي بما يستحق النظر والالتفات ، ثم ألوان الناس ـ وهي لا تقف عند حد ـ وكذلك ألوان الدواب والأنعام ، والدابة كل حيوان ، والأنعام هي الإبل والبقر والغنم والماعز ، ذات الألوان والأصباغ العجيبة ، كلها معروضة للأنظار في هذا الكتاب الكوني ، الجميل الصفحات ، العجيب في التكوين والتلوين . (٥) مختصر ابن كثير ٣/ ١٤٦ .

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾

يداومون على تلاوة القرآن آناء الليل وأطراف النهار ﴿وأقاموا الصلاة﴾ أي أدوها عى الوجه الأكمل في أوقاتها ، بخشوعها وآدابها ، وشروطها وأركانها ﴿وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية﴾ أي وأنفقوا بعض أموالهم في سبيل الله وابتغاء رضوانه في السر والعلن ﴿يرجون تجارة لن تبور﴾ أي يرجون بعملهم هذا تجارة رابحة ، لن تكسد ولن تهلك بالخسران أبداً ﴿ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله﴾ أي ليوفيهم الله جزاء أعمالهم ، وثواب ما فعلوا من صالح الأعمال ، ويزيدهم ـ فوق أجورهم ـ من فضله وإنعامه وإحسانه قال في التسهيل : توفية الأجور هو ما يستحقه المطيع من الثواب ، والزيادة : التضعيف فوق ذلك أو النظر إلى وجه الله[1] ﴿إنه غفور شكور﴾ أي مبالغ في الغفران لأهل القرآن ، شاكر لطاعتهم قال ابن كثير : كان مطرف إذا قرأ هذه الآية قال : هذه آية القراء[2] ﴿والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحقُّ﴾ أي والذي أوحيناه إليك يا محمد من الكتاب المنزَّل ـ القرآن العظيم ـ هو الحق الذي لا شك فيه ، ولا ريب في صدقه ﴿مصدِّقاً لما بين يديه﴾ أي حال كونه مصدقاً لما سبقه من الكتب الإلهية المنزلة كالتوراة والإنجيل والزبور قال أبو حيان : وفي الآية إشارة إلى كونه وحياً ، لأنه عليه السلام لم يكن قارئاً ولا كاتباً وأتى ببيان ما في كتب الله ، ولا يكون ذلك إلا من الله[3] ﴿إنَّ اللهَ بعباده لخبير بصير﴾ أي هو جل وعلا خبير بعباده محيط ببواطن أمورهم وظواهرها ، بصيرٌ بهم لا تخفى عليه خافية من شئونهم .

البَلاَغَة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الطباق بين ﴿يُذهب . . ويأت﴾ وبين ﴿الأعمى . . والبصير﴾ و﴿الظلمات . . والنور﴾ و﴿الظل . . والحرور﴾ و﴿الأحياء . . والأموات﴾ وبين ﴿نذيراً . . وبشيراً﴾ وبين ﴿سراً . . وعلانية﴾ .

٢ ـ جناس الاشتقاق ﴿ولا تزر وازرة﴾ ﴿حملها لا يحمل منه شيء﴾ .

٣ ـ الاستعارة التصريحية ﴿وما يستوي الأعمى والبصير . .﴾ الآية شبه الكافر بالأعمى ، والمؤمن بالبصير بجامع ظلام الطريق وعدم الاهتداء على الكافر ، ووضوح الرؤية والاهتداء للمؤمن . ثم استعار المشبه به ﴿الأعمى﴾ للكافر ، واستعار ﴿البصير﴾ للمؤمن بطريق الاستعارة التصريحية .

(١) التسهيل ٣/ ١٥٨ . (٢) المختصر ٣/ ١٤٦ . (٣) البحر المحيط ٧/ ٣١٣ .

٤ ـ الالتفات من الغيبة إلى التكلم ﴿أنزل من السماء ماءً فأخرجنا﴾ بدل فأخرج لما في ذلك من الفخامة ولبيان كمال العناية بالفعل ، لما فيه من الصنع البديع ، المنبيء عن كمال قدرة الله وحكمته .

٥ ـ قصر صفة على موصوف ﴿إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ﴾ فقد قصر الخشية على العلماء .

٦ ـ الاستفهام التقريري وفيه معنى التعجب ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً . .﴾ الآية .

٧ ـ الاستعارة ﴿يرجون تجارة لن تبور﴾ استعار التجارة للمعاملة مع الله تعالى لنيل ثوابه ، وشبهها بالتجارة الدنيوية وهي معاملة الخلق بالبيع والشراء لنيل الربح ثم رشحها بقوله ﴿لن تبور﴾ .

٨ ـ توافق الفواصل مما يزيد في جمال الكلام ورونقه ووقعه في النفس مثل ﴿يرجون تجارة لن تبور﴾ ﴿إنه غفور شكور﴾ ومثل ﴿وبالكتاب المنير﴾ ﴿فكيف كان نكير﴾ وهكذا .

* * *

قال الله تعالى : ﴿ثم أورثنا الكتاب الذي اصطفينا . . إلى فإن الله كان بعباده بصيراً﴾

من آية (٣٢) إلى آية (٤٥) نهاية السورة

المنَاسَبَة : لما أثنى تعالى على الذين يتلون كتاب الله ، ذكر هنا انقسام الأمة الإسلامية أمام هذا الكنز الثمين إلى ثلاثة أقسام : الظالم لنفسه ، والمقتصد ، والسابق بالخيرات ، ثم ذكر مآل الأبرار والفجار ، ليظل العبد بين الخوف والرجاء ، والرغبة والرهبة .

اللغَــة : ﴿نَصَب﴾ تعب ومشقة جسمانية ﴿لُغُوب﴾ اللُّغُوب : الإعياء والضعف والفتور ومنه ﴿وما مسَّنا من لُغُوب﴾ ﴿يصطرخون﴾ من الصراخ وهو الصياح بصوت عال ، والصارخ : المستغيث ، والمُصْرِخ : المغيث قال سلامة بن جندب :

كنَّا إذا ما أتانا صارخٌ فزِعٌ كان الصُّراخ له قرعُ الظَّنابيب[1]

﴿النذير﴾ المنذر الذي يخوِّف الناس من عذاب الله ﴿خلائف﴾ جمع خليفة وهو الذي يخلف غيره في أمر من الأمور ﴿مقتاً﴾ المقت : أشد البغض والغضب ﴿خساراً﴾ هلاكاً وضلالاً ﴿يحيق﴾ حاق به الشيء : نزل وأحاط .

ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ

التفسِــير : ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا﴾ أي ثم أورثنا هذا القرآن العظيم لأفضل الأمم ـ وهم أمة محمد عليه السلام ـ الذين اخترناهم على سائر الأمم ، وخصصناهم بهذا الفضل العظيم ، القرآن المعجز خاتمة الكتب السماوية قال الزمخشري : والذين اصطفاهم الله هم أمة محمد من الصحابة والتابعين ومن بعدهم إلى يوم القيامة[2] . . ثم قسمهم إلى ثلاثة أصناف فقال ﴿فمنهم ظالم لنفسه ، ومنهم مقتصد ، ومنهم سابقٌ بالخيرات بإذنِ الله﴾ أي فمن هؤلاء الذين أورثناهم الكتاب من هو مقصِّر في عمل الخير ، يتلو القرآن ولا يعمل به وهو الظالم لنفسه ، ومنهم من هو متوسط

(١) القرطبي ١٤/٣٥٢ . (٢) الكشاف ٣/ ٤٨٤ .

﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾

في فعل الخيرات والصالحات ، يعمل بالقرآن في أغلب الأوقات ، ويقصِّر في بعض الفترات وهو المقتصد ، ومنهم من هو سبَّاق في العمل بكتاب الله ، يستبق الخيرات وقد أحرز قصب السبق في فعل الطاعات بتوفيق الله وتيسيره وهو السابق بالخيرات بإذن الله قال ابن جزي : وأكثر المفسرين أن هذه الأصناف الثلاثة في أمة محمد ﷺ فالظالم لنفسه : العاصي ، والسابق : التقيُّ ، والمقتصد : بينهما[1] وقال الحسن البصري : السابقُ من رجحت حسناته على سيئاته ، والظالم لنفسه من رجحت سيئاته ، والمقتصد من استوت حسناته وسيئاته ، وجميعهم يدخلون الجنة[2] ﴿ذلك هو الفضل الكبير﴾ أي ذلك الإرث والاصطفاء لأمة محمد عليه السلام لحمل أشرف الرسالات والكتب السماوية هو الفضل العظيم الذي لا يدانيه فضل ولا شرف ، فقد تفضل الله عليهم بهذا القرآن المجيد ، الباقي مدى الدهر ، وأنعم به من فضل ! ثم أخبر تعالى عما أعده للمؤمنين في جنات النعيم فقال ﴿جناتُ عدنٍ يدخلونها﴾ أي جنات إقامة ينعَّمون فيها بأنواع النعيم ، وهي مراتب ودرجات متفاوتة حسب تفاوت الأعمال ، وإنما جمع ﴿الجنات﴾ لأنها جنات كثيرة وليست جنة واحدة ، فهناك جنة الفردوس ، وجنة عدن ، وجنة النعيم ، وجنة المأوى ، وجنة الخلد ، وجنة السلام ، وجنة عليين ، وفي كل جنة مراتبُ ونُزلٌ بحسب مراتب العاملين ﴿يُحلَّون فيها من أساور من ذهبٍ ولؤلؤاً﴾ أي يزينون في الجنة بأساور من ذهب مرصَّعة باللؤلؤ ﴿ولباسُهم فيها حرير﴾ أي وجميع ما يلبسونه في الجنة من الحرير ، بل فرشهم وستورهم كذلك قال القرطبي : لما كانت الملوك تلبس في الدنيا الأساور والتيجان ، جعل الله ذلك لأهل الجنة ، وليس أحد من أهل الجنة إلا في يده ثلاثة أسورة : سوارٌ من ذهب ، وسوار من فضة ، وسوار من لؤلؤ[3] ﴿وقالوا الحمدُ للهِ الذي أذهب عنا الحزن﴾ أي وقالوا عند دخولهم الجنة الحمدُ لله الذي أذهب عنا جميع الهموم والأكدار والأحزان قال المفسرون : عبَّر بالماضي ﴿وقالوا﴾ لتحقق وقوعه ، والحزن يعمُّ كل ما يكدِّر صفو الإنسان من خوف المرض ، والفقر ، والموت ، وأهوال القيامة ، وعذاب النار وغير ذلك[4] ﴿إنَّ ربنا لغفور شكور﴾ أي واسع المغفرة للمذنبين ، شكور لطاعة المطيعين ، وكلا اللفظتين للمبالغة أي واسع الغفران عظيم الشكر والإحسان ﴿الذي أحلَّنا دار المُقامة من فضلِه﴾ أي أنزلنا الجنة وأسكننا فيها ، وجعلها مقراً لنا وسكناً ، لا نتحول عنها أبداً ، وكل ذلك من إنعامه وتفضله علينا ﴿لا يَمسُّنا فيها نصَب﴾ أي لا يصيبنا فيها تعب ولا مشقة ﴿ولا يمسُّنا فيها

(١) التسهيل في علوم التنزيل ٣/ ١٥٨ . (٢) زاد المسير ٦/ ٤٩٠ والقول بأن هذه الأصناف الثلاثة من أمة محمد ﷺ هو الراجح وهو اختيار ابن جرير وقد أورد العلامة ابن كثير أحاديث تدل على ذلك . (٣) القرطبي ١٢/ ٥٢ . (٤) انظر تفسير أبي السعود ٤/ ٢٤٥ والطبري ٢٢/ ٩١ .

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾

لغــوب﴾ أي ولا يصيبنا فيها إعياءٌ ولا فتور قال ابن جزي : وإنما سميت الجنة ﴿دار المُقامــة﴾ لأنهم يقومون فيها ويمكثون ولا يُخرجون منها ، والنَّصبُ تعبُ البدن ، واللغوبُ تعب النفس الناشيء عن تعب البدن[١] . . ولما ذكر تعالى حال السعداء الأبرار ، ذكر حال الأشقياء الفجار فقال ﴿والذيـن كفـروا لهـم نـار جهنـم﴾ أي والذين جحدوا بآيات الله وكذبوا رسله فإنَّ لهم نار جهنم المستعرة جزاءً وفاقاً على كفرهم ﴿لا يُقضــى عليهـم فيموتـوا﴾ أي لا يحكم عليهم بالموت فيهاحتى يستريحوا من عذاب النار ﴿ولا يُخَفَّـف عنهـم مـن عذابهـا﴾ أي ولا يخفف عنهم شيء من العذاب ، بل هم في عذاب دائم مستمر لا ينقطع كقوله ﴿كلمـا خبـتْ زدناهم سعـيراً﴾ ﴿كذلـك نجـزي كـل كفـور﴾ أي مثـل ذلك العـذاب الشديد الفظيع ، نجازي ونعاقب كل مبالغ في الكفر والعصيان ﴿وهـم يصطرخــون فيهـا ربَّنـا أخرجْنـا نعْمـل صالحاً غيـرَ الذي كنا نعمـل﴾ أي وهم يتصارخون في جهنم ويستغيثون برفع أصواتهم قائلين : ربنا أخرجنا من النار وردنا إلى الدنيا لنعمل عملاً صالحاً يقربنـا منـك ، غـير الـذي كنـا نعملـه قال القرطبي : أي نؤمن بدل الكفر ، ونطيع بدل المعصية ، ونمتثل أمر الرسل[٢] . . وفي قولهم ﴿غيـر الـذي كنا نعمـل﴾ اعترافٌ بسوء عملهم ، وتنـدُّمٌ عليه وتحسر[٣] ، قال تعالى رداً عليهم وموبخاً لهم ﴿أولـم نُعـمِّرْكُـم ما يتَذكَّـر فيـه منْ تذكَّـر﴾ أي أولم نترككم ونمهلكم في الدنيا عمراً مديداً يكفي لأن يتذكر فيه من يريد التذكر والتفكر ؟ فماذا صنعتم في هذه المدة التي عشتموها ؟ وما لكم تطلبون عُمراً آخر ؟ وفي الحديث « أعذر الله إلى امرىءٍ أخَّـر أجله حتى بلغ ستين سنة »[٤] ومعنى « أعـذر » أي بلغ به أقصى العذر ﴿وجاءكـم النذيـر﴾ أي وجاءكم الرسول المنذر وهو محمد عليه السلام الـذي بعـث بـين يدي الساعة ، وقيل : ﴿النذيـر﴾ هو الشيبُ ، والأول أظهر[٥] ﴿فـذوقـوا فما للظـالميـن مـنْ نصيـر﴾ أي فذوقوا العذاب يا معشر الكافرين ، فليس لكم اليوم ناصر ولا معين يدفع عنكم عذاب الله قال الإمام الفخر : والأمرُ أمـرُ إهانة ﴿فـذوقـوا﴾ وفيه إشارة إلى الدوام[٦] ، وإنما وضعَ الظاهر ﴿للظالميـن﴾ موضع الضمير « لكـم » لتسجيل الظلم عليهم ، وأنهم بكفرهم وظلمهم ليس لهم نصيرٌ أصلاً لا من الله ولا

---

(١) التسهيل في علوم التنزيل ٣/ ١٥٩ .

(٢) القرطبي ١٤/ ٣٥٢ . (٣) التسهيل في علوم التنزيل ٣/ ١٥٩ . (٤) أخرجه البخاري وترجم له بقوله « بابٌ من بلغ ستين سنة فقد أعذر إليه في العمر وذكر الآية ، قال ابن كثير وهذا هو الصحيح في مقدار العمر » .

(٥) ترجم الإمام البخاري ﴿وجاءكـم النذيـر﴾ يعني الشيب ، وروي هذا عن ابن عباس وعكرمة قال ابن كثير : وما روي عن قتادة أن النذير هو رسول الله ﷺ هو الصحيح وهو اختيار ابن جرير وهو الأظهر . (٦) التفسير الكبير ٢٦/ ٣٠ .

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ إِلَّا مَقۡتٗاۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ إِلَّا خَسَارٗا ﴿٣٩﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا فَهُمۡ عَلَىٰ بَيِّنَتٖ مِّنۡهُۚ بَلۡ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعۡضُهُم بَعۡضًا إِلَّا﴾

من العباد ، ثم قال تعالى ﴿إن الله عالمُ غيبِ السموات والأرض﴾ أي هو تعالى العالم الذي أحاط علمه بكل ما خفي في الكون من غيب السموات والأرض ، لا يخفى عليه شأن من شئونهما ﴿إنه عليم بذاتِ الصدور﴾ أي يعلم جلَّ وعلا مضمرات الصدور ، وما تخفيه من الهواجس والوساوس ، فكيف لا يعلم أعمالهم الظاهرة ؟ قال المفسرون : والجملة لتأكيد ما سبق من دوام عذاب الكفار في النار ، لأن الله تعالى يعلم من الكافر أنه تمكَّن الكفر في قلبه بحيث لو دام في الدنيا إلى الأبد ما آمن بالله ولا عبَده ، فالعذابُ الأبديُّ مساوٍ لكفرهم الأبدي ، فلا ظلم ولا زيادة ﴿ولا يظلم ربك أحداً﴾ قال القرطبي : والمعنى في الآية علم أنه لو ردكم إلى الدنيا لم تعملوا صالحاً كما قال تعالى ﴿ولو رُدُّوا لعادوا لما نُهُوا عنه﴾[1] ﴿هو الذي جعلكم خلائفَ في الأرض﴾ أي هو تعالى جعلكم أيها الناس خلائف في الأرض ، بعد عاد وثمود ومن مضى قبلكم من الأمم ، تخلفونهم في مساكنهم جيلاً بعد جيل ، وقرناً بعد قرن ﴿فمن كفر فعليه كفره﴾ أي فمن كفر بالله فعليه وبال كفره ، لا يضر بذلك إلا نفسه ﴿ولا يزيد الكافرين كفرُهم عند ربهم إلا مقتاً﴾ أي ولا يزيدهم كفرهم إلا طرداً من رحمة الله وبعداً وبغضاً شديداً من الله ﴿ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خساراً﴾ أي ولا يزيدهم كفرهم إلا هلاكاً وضلالاً وخسران العمر الذي ما بعده شر وخسار ! ! قال أبو حيان : وفي الآية تنبيه على أنه تعالى استخلفهم بدل من كان قبلهم ، فلم يتعظوا بحال من تقدمهم من المكذبين للرسل وما حلَّ بهم من الهلاك ، ولا اعتبروا بمن كفر ، ولا اتعظوا بمن تقدم ، والمقتُ أشد الاحتقار والبغض ، والخسارُ خسارُ العمر ، كأنَّ العمر رأس مال الإنسان فإذا انقضى في غير طاعة الله فقد خسره ، واستعاض به بدل الربح سخط الله وغضبه ، بحيث صار إلى النار المؤبدة[2] ، ثم وبَّخ تعالى المشركين في عبادتهم ما لا يسمع ولا ينفع فقال ﴿قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله﴾ ؟ قال الزمخشري : ﴿أرأيتم﴾ معناها أخبروني كأنه قال : أخبروني عن هؤلاء الشركاء وعما استحقوا به الإلهية والشركة[3] ، ومعنى الآية : قل يا محمد تبكيتاً لهؤلاء المشركين : أخبروني عن شأن آلهتكم ـ الأوثان والأصنام ـ الذين عبدتموهم من دون الله ، وأشركتموهم معه في العبادة ، بأي شيء استحقوا هذه العبادة ؟ ﴿أروني ماذا خلقوا من الأرض﴾ أي أروني أيَّ شيء خلقوه في هذه الدنيا من المخلوقات حتى عبدتموهم من دون الله ؟ ﴿أم لهم شِركٌ في السموات﴾ أي أم شاركوا اللهَ في خلق السموات فاستحقوا بذلك الشركة معه في الألوهية ؟

(١) القرطبي ٢٢/ ٣٥٥ . (٢) تفسير البحر المحيط ٧/ ٣١٧ . (٣) تفسير الكشاف ٣/ ٤٨٧ .

غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾

﴿أم آتيناهم كتاباً فهم على بينةٍ منه﴾ أي أم أنزلنا عليهم كتاباً ينطق بأنهم شركاء الله فهم على بصيرة وحجة وبرهان في عبادة الأوثان ﴿بل إنْ يعدُ الظالمون بعضُهم بعضاً إلا غروراً﴾ إضرابٌ عن السابق وبيانٌ للسبب الحقيقي أي إنما اتخذوهم آلهة بتضليل الرؤساء للأتباع بقولهم : الأصنام تشفع لهم ، وهو غرور باطل وزور قال أبو السعود : لما نفى أنواع الحجج أضرب عنه بذكر ما حملهم عليه ، وهو تغرير الأسلاف للأخلاف ، وإضلال الرؤساء للأتباع بأنهم يشفعون لهم عند الله[1] .. ثم ذكر تعالى دلائل قدرته ووحدانيته فقال ﴿إنَّ اللَّهَ يُمسِكُ السَّموات والأرضَ أنْ تزولا﴾ أي هو جل وعلا بقدرته وبديع حكمته ، يمنع السموات والأرض من الزوال ، والسقوط ، والوقوع كما قال تعالى ﴿ويُمسكُ السماء أن تقع على الأرضِ إلا بإذنهِ﴾ قال القرطبي : لما بيَّن أن آلهتهم لا تقدر على خلق شيء من السموات والأرض ، بيَّن أن خالقهما وممسكهما هو الله ، فلا يوجد حادث إلا بإيجاده ، ولا يبقى إلا ببقائه[2] ﴿ولئن زالتا إنْ أمسكَهُما من أحدٍ من بعده﴾ أي ولئن زالتا عن أماكنهما ـ فرضاً ـ ما أمسكهما أحدٌ بعد الله ، بمعنى أنه لا يستطيع أحدٌ على إمساكهما ، إنما هما قائمتان بقدرة الواحد القهار ﴿إنَّهُ كان حليماً غفوراً﴾ أي إنه تعالى حليم لا يعاجل العقوبة للكفار مع استحقاقهم لها ، واسع المغفرة والرحمة لمن تاب منهم وأناب ﴿وأقسموا باللَّهِ جهد أيْمانِهم﴾ أي حلف المشركون بالله أشدَّ الأيمان وأبلغها قال الصاوي : كانوا يحلفون بآبائهم وأصنامهم فإذا أرادوا التأكيد والتشديد حلفوا بالله[3] ﴿لئن جاءَهُم نذيرٌ﴾ أي لئن جاءهم رسول منذر ﴿ليكونُنَّ أهدى من إحدى الأُمم﴾ أي ليكونُنَّ أهدى من جميع الأمم الذين أرسل الله إليهم الرسل من أهل الكتاب قال أبو السعود : بلغ قريشاً قبل مبعث رسول الله ﷺ أنَّ أهل الكتاب كذبوا رسلهم فقالوا : لعن اللهُ اليهودَ والنصارى ، أتتهم الرسلُ فكذبوهم ، فواللهِ لئن أتانا رسول لنكوننَّ أهدى من اليهود والنصارى وغيرهم[4] ﴿فلما جاءهم نذيرٌ﴾ أي فلما جاءهم محمد ﷺ أشرف المرسلين ﴿ما زادهم إلا نفوراً﴾ أي ما زادهم مجيئه إلا تباعداً عن الهدى والحق وهرباً منه ﴿استكباراً في الأرضِ ومكرَ السَّيء﴾ أي نفروا منه بسبب استكبارهم عن اتباع الحق ، وعتوهم وطغيانهم في الأرض ، ومن أجل المكر السيء بالرسول وبالمؤمنين ، ليفتنوا ضعفاء الايمان عن دين الله قال أبو حيان : أي سبب النفور هو الاستكبار والمكر السيء يعني أن الحامل لهم على

---

(١) تفسير أبي السعود ٤/ ٢٤٦ . (٢) تفسير القرطبي ١٤/ ٣٥٦ . (٣) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/ ٣١٥ .

(٤) تفسير أبي السعود ٤/ ٢٤٦ .

﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾﴾

الابتعاد من الحق هو الاستكبار ، والمكرُ السيءُ وهو الخداع الذي يرومونه برسول الله ﷺ والكيد له[١] ، قال تعالى رداً عليهم ﴿ولا يحيقُ المكرُ السَّيءُ إلا بأهلِه﴾ أي ولا يحيط وبال المكر السيء إلا بمن مكره ودبَّره كقولهم «من حفر حفرة لأخيه وقع فيها» ﴿فهل ينظرون إلا سنة الأولين﴾ أي فهل ينتظر هؤلاء المشركون إلا عادة الله وسنته في الأمم المتقدمة ، من تعذيبهم وإهلاكهم بتكذيبهم للرسل ؟ ﴿فلن تجد لسنة الله تبديلاً﴾ أي لن تتغير ولن تتبدل سنته تعالى في خلقه ﴿ولن تجد لسنةِ اللهِ تحويلاً﴾ أي ولا يستطيع أحد أن يحوِّل العذاب عنهم إلى غيرهم قال القرطبي : أجرى الله العذاب على الكفار ، فلا يقدر أحد أن يُبدِّل ذلك ، ولا أن يحُوِّل العذاب عن نفسه إلى غيره ، والسُّنة هي الطريقة[٢] .. ثم حثهم تعالى على مشاهدة آثار من قبلهم من المكذبين ليعتبروا فقال ﴿أولَمْ يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبةُ الذينَ من قبْلِهم﴾ ؟ أولم يسافروا ويمروا على القرى المهلكة فيروا آثار دمار الأمم الماضية حين كذبوا رسلهم ماذا صنع الله بهم ؟ ﴿وكانوا أشدَّ منهم قوة﴾ أي وكانوا أقوى من أهل مكة أجساداً ، وأكثر منهم أموالاً وأولاداً ﴿وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض﴾ أي أنه سبحانه لا يفوته شيء ، ولا يصعب عليه أمر في هذا الكون ﴿إنه كان عليماً قديراً﴾ أي بالغ العلم والقدرة ، عالم بشئون الخلق ، قادر على الانتقام ممن عصاه ﴿ولو يؤاخذ اللهُ الناسَ بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة﴾ بيانٌ لحلم الله ورحمته بعباده أي لو آخذهم بجميع ذنوبهم ما ترك على ظهر الأرض أحداً يدب عليها من إنسان أو حيوان قال ابن مسعود : يريد جميع الحيوان مما دبَّ ودرج[٣] ﴿ولكنْ يؤخرهم إلى أجلٍ مسمًّى﴾ أي ولكنه تعالى من رحمته بعباده ، ولطفه بهم ، يمهلهم إلى زمن معلوم وهو يوم القيامة فلا يعجل لهم العذاب ﴿فإذا جاء أجلهم فإن اللهَ كان بعباده بصيراً﴾ أي فإذا جاء ذلك الوقت جازاهم بأعمالهم ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، لأنه تعالى العالم بشئونهم المطلع على أحوالهم قال ابن جرير : بصيراً بمن يستحق العقوبة ، وبمن يستوجب الكرامة[٤] ، وفي الآية وعيدٌ للمجرمين ووعد للمتقين .

(١) تفسير البحر المحيط ٧/ ٣١٩ . (٢) تفسير القرطبي ١٤/ ٣٦٠ . (٣) تفسير القرطبي ١٤/ ٣٦١ . (٤) تفسير الطبري ٢٢/ ٩٦ .

البَــلاَغَــة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الإطناب بتكرار الفعل ﴿لا يمسنا فيها نصب ، ولا يمسنا فيها لغوب﴾ للمبالغة في انتفاء كل منهما استقلالاً ، وكذلك الإطناب في قوله ﴿ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتاً ، ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خساراً﴾ لزيادة التشنيع والتقبيح على من كفر بالله .

٢ ـ التهكم في صيغة الأمر ﴿فذوقوا فما للظالمين من نصير﴾ مثل ﴿ذق أنك أنت العزيز الكريم﴾ .

٣ ـ المبالغة مثل ﴿غفور ، شكور ، كفور﴾ ومثل ﴿حليماً ، عليماً ، قديراً﴾ فإنها من صيغ المبالغة .

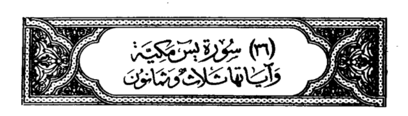
٤ ـ الاستفهام الإنكاري للتوبيخ ﴿أروني ماذا خلقوا من الأرض﴾ ؟ وكذلك ﴿أم لهم شرك في السموات﴾ ؟

٥ ـ الاستعارة المكنية ﴿ما ترك على ظهرها من دابة﴾ شبَّه الأرض بدابة تحمل على ظهرها أنواع المخلوقات ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو الظهر بطريق الاستعارة المكنية .

٦ ـ السجع غير المتكلف ، البالغ نهاية الروعة والجمال مثل ﴿وجاءكم النذير * فذوقوا فما للظالمين من نصير﴾ وهو من المحسنات البديعية .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة فاطر »

* * *



بين يدي السورة

* سورة يس مكية وقد تناولت مواضيع أساسية ثلاثة وهي : « الإيمان بالبعث والنشور ، وقصة أهل القرية ، والأدلة والبراهين على وحدانية رب العالمين » .

* ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بالقرآن العظيم على صحة الوحي ، وصدق رسالة محمد ﷺ ثم تحدثت عن كفار قريش ، الذين تمادوا في الغي والضلال ، وكذبوا سيد الرسل محمد بن عبد الله ، فحقَّ عليهم عذاب الله وانتقامه .

* ثم ساقت قصة أهل القرية « إنطاكية » الذين كذبوا الرسل ، لتحذر من عاقبة التكذيب بالوحي والرسالة ، على طريقة القرآن في استخدام القصص للعظة والاعتبار .

* وذكرت موقف الداعية المؤمن « حبيب النّجار » الذي نصح قومه فقتلوه فأدخله الله الجنة ، ولم يمهل المجرمين بل أخذهم بصيحة الهلاك والدمار .

* وتحدثت السورة عن دلائل القدرة والوحدانية ، في هذا الكون العجيب ، بدءاً من مشهد الأرض الجرداء تدب فيها الحياة ، ثم مشهد الليل ينسلخ عنه النهار ، فإذا هو ظلامٌ دامسٌ ، ثم مشهد الشمس الساطعة تدور بقدرة الله في فلكٍ لا تتخطاه ، ثم مشهد القمر يتدرج في منازله ، ثم مشهد الفلك المشحون يحمل ذرية البشر الأولين ، وكلها دلائل باهرة على قدرة الله جل وعلا .

* وتحدثت عن القيامة وأهوالها ، وعن نفخة البعث والنشور ، التي يقوم الناس فيها من القبور ، وعن أهل الجنة وأهل النار ، والتفريق بين المؤمنين والمجرمين في ذلك اليوم الرهيب ، حتى يستقر السعداء في روضات النعيم ، والأشقياء في دركات الجحيم .

* وختمت السورة الكريمة بالحديث عن الموضوع الأساسي ، وهو موضوع « البعث والجزاء » وأقامت الأدلة والبراهين على حدوثه .

التسمية : سميت السورة « سورة يس » لأن الله تعالى افتتح السورة الكريمة بها ، وفي الافتتاح بها

إشارة إلى إعجاز القرآن الكريم .

فضلها : قال ﷺ « إن لكل شيء قلباً وقلبُ القرآن يس ، وددت أنها في قلب كل أنسانٍ من أمتي »[١]

* * *

قال الله تعالى : ﴿يس . والقرآن الحكيم . . إلى . . وإن كلٌّ لما جميع لدينا محضرون﴾
من آية (١) إلى نهاية آية (٣٢) .

اللغــة : ﴿أغلالاً﴾ جمع غُلّ وهو القيد الذي يوضع في اليد ، وقد تشدُّ به اليد مع العنق ﴿مقمحون﴾ رافعو الرؤوس مع غض البصر ، قال أهل اللغة : الإقماح : رفع الرأس وغض البصر يقال : أقمح البعير إذا رفع رأسه عند الحوض وامتنع من الشرب[٢] ، قال بشر يصف سفينة :

ونحن على جوانبها قعودٌ نغضُّ الطرف كالإبل القِماح[٣]

﴿سداً﴾ السَّد : الحاجز والمانع بين الشيئين ﴿فعززنا﴾ عززه قوّاه وشدَّ من أزره ﴿تطيرنا﴾ تشاءمنا ، والتطير التشاؤم ، وأصله من الطير إذا طار الى جهة اليسار تشاءموا به ﴿خامدون﴾ ميتون لا حراك بهم كما تخمد النار .

بسم الله الرحمن الرحيم

يسٓ ﴿١﴾ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٣﴾

التفسير : ﴿يس﴾ الحروف المقطعة في أوائل بعض السور الكريمة للتنبيه على إعجاز القرآن ، وأنه مصوغ من جنس هذه الحروف الهجائية التي يعرفونها ويتكلمون بها ، ولكنَّ نظمه البديع المعجز آيةٌ على كونه من عند الله[٤] وقال ابن عباس : معنى « يس » يا إنسان في لغة طيء ، وقيل : هو اسم من أسماء النبي ﷺ بدليل قوله بعده ﴿إنك لمن المرسلين﴾ وقيل معناه : يا سيد البشر قاله أبو بكر الوراق[٥] ﴿والقرآنِ الحكيم﴾ قسم من الله تعالى بالقرآن ، والحكيم معناه المحكم ، الذي لا يلحقه تغيير ولا تبديل ، ولا يعتريه تناقض أو بطلان قال القرطبي : أُحكم في نظمه ومعانيه فلا يلحقه خلل[٦] وقال أبو السعود : أي المتضمن للحكمة أو الناطق بالحكمة من حيث نظْمه المعجزُ ، المنطوي على بدائع الحكم[٧] . . والخلاصة فقد أقسم تعالى بهذا الكتاب المحكم ، المعجز في نظمه ، وبديع معانيه ، المتقن في تشريعه وأحكامه ، الذي بلغ أعلى طبقات البلاغة ، على أن محمداً رسوله ، وفي هذا القسم من التعظيم والتفخيم لشأن الرسول ما فيه ﴿إنك لمن المرسلين﴾ جواب القسم أي إنك يا محمد لمن المرسلين

---

(١) أخرجه البزّار (٢) انظر القاموس المحيط مادة قمح . (٣) تفسير الطبري ١٥/ ٨ . (٤) انظر تفصيل البحث حول الحروف المقطعة في أوائل البقرة من هذا التفسير . (٥) القرطبي ١٥/ ٤ . (٦) تفسير القرطبي ١٥/ ٥ . (٧) تفسير أبي السعود ٤/ ٢٤٧ .

عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾

من رب العالمين لهداية الخلق قال ابن عباس: قالت كفار قريش: لست يا محمد مرسلاً، وما أرسلك الله إلينا، فأقسم الله بالقرآن العظيم المحكم أن محمداً ﷺ من المرسلين[١] ﴿على صراط مستقيم﴾ أي على طريق ونهج مستقيم ، لا انحراف فيه ولا اعوجاج ، هو الإسلام دين الرسل قبلك ، الذين جاءوا بالايمان والتوحيد قال الطبري : أي على طريق لا اعوجاج فيه من الهدى وهو الإسلام كما قال قتادة[٢] ، والتنكير للتفخيم والتعظيم[٣] ﴿تنزيل العزيز الرحيم﴾ أي هذا القرآن الهادي المنير ، تنزيلٌ من ربِّ العزة جل وعلا ، العزيز في ملكه ، الرحيم بخلقه ﴿لتنذر قوماً ما أُنذر آباؤهم﴾ أي لتنذر يا محمد بهذا القرآن العرب ، الذين ما جاءهم رسولٌ ولا كتاب ، لتطاول زمن الفترة عليهم ، والمراد بالإنذار تخويفهم من عذاب الله ﴿فهم غافلون﴾ أي فهم بسبب ذلك غافلون عن الهدى والايمان ، يتخبطون في ظلمات الشرك وعبادة الأوثان . . ثم بيَّن تعالى استحقاقهم للعذاب بإصرارهم على الكفر والتكذيب فقال ﴿لقد حقَّ القولُ على أكثرهم فهم لا يؤمنون﴾ اللام موطئة للقسم أي والله لقد وجب عذاب النار على أكثر هؤلاء المشركين ، بسبب إصرارهم على الكفر والإنكار ، وعدم تأثرهم بالتذكير والإنذار ، فهم لذلك لا يؤمنون بما جئتهم به يا محمد . . ثم بيَّن تعالى سبب تركهم الايمان فقال ﴿إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقمحون﴾ تمثيلٌ وتصوير لحال المشركين في ضلالهم بحال الذي جعل في يده غلٌ وجمعت يده إلى عنقه ، فبقي رافعاً رأسه لا يخفضه قال في الجلالين : وهذا تمثيل والمراد أنهم لا يُذعنون للايمان ، ولا يخفضون رؤوسهم له[٤] قال ابن كثير : ومعنى الآية : إنا جعلنا هؤلاء المحتوم عليهم بالشقاء ، كمن جُعل في عُنقه غلٌ ، وجمعت يداه مع عنقه تحت ذقنه[٥] ، فارتفع رأسه فصار مُقمحاً ، والمُقمح هو الرافع رأسه ، واكتفى بذكر الغُلِّ في العنق عن ذكر اليدين ، لأن الغُلَّ إنما يُعرف فيما جمع اليدين مع العنق[٦] وقال أبو السعود : مثَّل حالهم بحال الذين غُلَّت أعناقهم ﴿فهي إلى الأذقان﴾ أي فالأغلال منتهيةٌ إلى أذقانهم ، فلا تدعهم يلتفتون إلى الحق ، ولا يعطفون أعناقهم نحوه ، ولا يُطأطئون رؤوسهم، غاضون أبصارهم ، بحيث لا يكادون يرون الحقَّ ، أو ينظرون إلى جهته[٧] ﴿وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً﴾ قال أبو السعود : وهذا تتمةٌ للتمثيل وتكميلٌ له أي وجعلنا من أمامهم سداً عظيماً ، ومن ورائهم سداً كذلك ﴿فأغشيناهم

(١) تفسير القرطبي ١٥/ ٥ وقد نقله القرطبي عن القشيري . (٢) تفسير الطبري ٢٢/ ٩٧ . (٣) الانتصاف على الكشاف ٤/ ٢ . (٤) تفسير الجلالين ٣/ ٣١٨ . (٥) الذَّقن : مفرد الأذقان قال الطبري : والذقن مجمع اللحيين . (٦) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ١٥٥ . (٧) تفسير أبي السعود ٤/ ٢٤٨ .

﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾

فهم لا يُبصرون﴾ أي فغطينا بها أبصارهم فهم بسبب ذلك لا يبصرون شيئاً أصلاً ، لأنهم أصبحوا محصورين بين سدين هائلين ، وهذا بيان لكمال فظاعة حالهم وكونهم محبوسين في مطمورة الغيِّ والجهالات ، محرومين عن النظر في الأدلة والآيات[1] ، قال المفسرون : وهذا كله تمثيل لسدِّ طرق الإِيمان عليهم ، بمن سُدَّت عليه الطرق فهو لا يهتدي لمقصوده[2] ﴿وسواءٌ عليهم أأنذرتهم أم لم تُنْذرهم﴾ أي يستوي عندهم إنذارك يا محمد وتخويفك لهم وعدمه ، لأن من خيَّم على عقله ظلام الضلال ، وعشعشت في قلبه شهوات الطغيان ، لا تنفعه القوارع والزواجر ﴿لا يؤمنون﴾ أي فهم بسبب ذلك لا يؤمنون ، لأنَّ الإِنذار لا يخلق القلوب الميتة ، إنما يوقظ القلب الحيَّ المستعد لتلقي الإِيمان ، وهذا تسلية له ﷺ وكشف لحقيقة ما انطوت عليه قلوبهم من الطغيان ﴿إنما تُنذر من اتَّبع الذكر﴾ أي إنما ينفع إنذارك يا محمد من آمن بالقرآن وعمل بما فيه ﴿وخشي الرحمنَ بالغيب﴾ أي وخاف الله دون أن يراه قال أبو حيان : ﴿وخشي الرحمن﴾ أي المتصف بالرحمة ، والرحمةُ تدعو إلى الرجاء ، لكنه مع علمه برحمته يخشاه جل وعلا ، خوفاً من أن يسلبه ما أنعم به عليه ومعنى « بالغيب » أي بالخلوة عند مغيب الإِنسان عن عيون البشر[3] ﴿فَبَشِّرهُ بمغفرةٍ وأجرٍ كريم﴾ لما انتفع بالإِنذار كان جديراً بالبشارة أي فبشره يا محمد بمغفرةٍ عظيمة من الله لذنوبه ، وأجر كريمٍ في الآخرة في جنات النعيم قال ابن كثير : الأجر الكريم هو الكثير الواسع ، الحسن الجميل وذلك إنما يكون في الجنة . .[4] ولما ذكر تعالى أمر الرسالة ذكر بعدها أمر البعث والنشور فقال ﴿إنا نحن نحيي الموتى﴾ أي نبعثهم من قبورهم بعد موتهم للحساب والجزاء ﴿ونكتب ما قدَّموا وآثارهم﴾ قال الطبري : أي ونكتب ما قدَّموا في الدنيا من خير وشر ، ومن صالح الأعمال وسيئها ﴿وآثارهم﴾ أي وآثار خطاهم بأرجلهم إلى المساجد[5] ، وفي الحديث عن جابر قال « أراد بنو سَلمة أن يتحولوا إلى قرب المسجد ـ والبقاع خالية ـ فبلغ ذلك النبيﷺ فقال : « يا بني سلمة دياركم تُكتب آثاركم ، دياركم تُكتب آثاركم » فقالوا : ما كان يسرنا أنا كنا تحولنا »[6] ﴿وكل شيءٍ أحصيناه في إمام مبين﴾ أي وكل شيء من الأشياء أو أمرٍ من الأمور جمعناه وضبطناه في كتاب مسطور هو صحائف الأعمال كقوله تعالى ﴿يوم ندعو كل أناس بإمامهم﴾ أي بكتاب أعمالهم ، الشاهد عليهم بما عملوه من خيرٍ أو شر ، وقال مجاهد وقتادة : هو اللوح المحفوظ[7] وقال أبو حيان : « ونكتب ما قدَّموا » أي ونحصي ، فعبَّر عن إحاطة علمه جل وعلا بأعمالهم بالكتابة التي تُضبط بها الأشياء[8] . . ثم ذكر تعالى

(١) تفسير أبي السعود ٤/ ٢٤٩ . (٢) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/ ٣١٩ . (٣) تفسير البحر المحيط ٧/ ٣٢٥ . (٤) مختصر ابن كثير ٣/ ١٥٦ . (٥) تفسير الطبري ٢٢/ ٩٩ . (٦) أخرجه مسلم في صحيحه . (٧) الأرجح ما ذكرناه أنه صحائف الأعمال وهو اختيار ابن كثير . (٨) البحر المحيط ٧/ ٣٢٥ .

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾﴾

للمشركين قصة أهل القرية الذين كذبوا الرسل فأهلكهم الله بصيحةٍ من السماء فقال ﴿واضربْ لهم مثلاً أصحاب القريـة﴾ أي واذكر يا محمد لقومك الذين كذبوك قصة أصحاب القرية « إنطاكية » التي هي في الغرابة كالمثل السائر والقول العجيب ﴿إذ جاءها المرسلون﴾ أي حين جاءهم رسلنا الذين أرسلناهم لهدايتهم قال القرطبي : وهذه القرية هي « إنطاكية » في قول جميع المفسرين أرسل الله إليهم ثلاثة رسل وهم « صادق » و « مصدوق » و « شمعون » أمر ﷺ بإنذار هؤلاء المشركين أن يحل بهم ما حلَّ بكفار أهل القرية المبعوث إليهم ثلاثة رسل من الله ، وقيل : هم رسل عيسى[1] ﴿إذْ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما﴾ أي حين بعثنا إليهم رسولين فبادروهما بالتكذيب ﴿فعزَّزْنا بثالث﴾ أي قوَّيناهما وشددنا أزرهما برسولٍ ثالث ﴿فقالوا إنا إليكم مرسلون﴾ أي نحن رسل الله مرسلون لهدايتكم ﴿قالوا ما أنتم إلا بشرٌ مثلنا﴾ أي ليس لكم فضلٌ علينا وما أنتم إلا بشر مثلنا ، فكيف أوحى الله إليكم دوننا ؟ ﴿وما أنزلَ الرحمن من شيء﴾ أي لم ينزل الله شيئاً من الوحي والرسالة ﴿إنْ أنتم إلا تكذبون﴾ أي ما أنتم إلا قوم تكذبون في دعوى الرسالة ﴿قالوا ربنا يعلمُ إنا إليكم لمرسلون﴾ أي أجابهم الرسل بقولهم الله يعلم أننا رسله إليكم ، ولو كنا كذبة لانتقم منا أشدَّ الانتقام قال ابن جزي : أكدوا الخبر هنا باللام ﴿لمرسلون﴾ لأنه جواب المنكرين ، بخلاف الموضع الأول فإنه إخبارٌ مجرد[2] ﴿وما علينا إلا البلاغ المبين﴾ أي وليس علينا إلا أن نبلغكم رسالة الله بلاغاً واضحاً جلياً لا غموض فيه ، فإن آمنتم فلكم السعادة ، وإن كذبتم فلكم الشقاوة قال أبو حيان : وفي هذا وعيدٌ لهم ، ووصف البلاغ بـ ﴿المبين﴾ لأنه الواضح بالآيات الشاهدة بصحة الإرسال ، كما روي في هذه القصة من المعجزات الدالة على صدق الرسل ، من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الميت[3] ﴿قالوا إنَّا تطيَّرنا بكم﴾ أي قال لهم أهل القرية : إنَّا تشاءمنا بكم وبدعوتكم القبيحة لنا إلى الايمان ، وترك عبادة الأوثان قال المفسرون : ووجه تشاؤمهم بالرسل أنهم دعوهم إلى دينٍ غير ما يدينون به ، فاستغربوه واستقبحوه ونفرت عنه طبيعتهم المعوجة ، فتشاءموا بمن دعا إليه كأنهم قالوا : أعاذنا الله مما تدعوننا إليه[4] ، ثم توعَّدُوا الرسل بقولهم ﴿لئن لم تنتهوا﴾ أي والله لئن لم تمتنعوا عن قولكم ، ودعوتكم لنا إلى التوحيد ، ورفض ديننا ﴿لنرجمنَّكم وليمسنَّكُم منا عذابٌ أليمٌ﴾ أي لنرجمنكم بالحجارة حتى تموتوا ،

(١) تفسير القرطبي ١٥/ ١٤ وما ذكره من أنهم رسل عيسى قول مرجوح لأن قوله تعالى ﴿ما أنتم إلا بشر مثلنا﴾ إنما يقال لمن ادعى أن الله أرسله كذا في التسهيل. (٢) التسهيل في علوم التنزيل ٣/ ١٦١ (٣) تفسير البحر المحيط ٧/ ٣٢٧ . (٤) حاشية شيخ زادة على البيضاوي ٣/ ١٢٥

﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾﴾

ولنقتلنَّكم شرَّ قِتلة **﴿قالوا طائركم معكم﴾** أي قالت الرسل لهم : ليس شؤمكم بسببنا ، وإنما شؤمكم بسببكم ، وبكفركم ، وعصيانكم ، وسوء أعمالكم **﴿أئن ذُكرتم﴾** ؟ شرطٌ جوابه محذوف لدلالة السياق عليه أي أئن ذكرناكم ووعظناكم ودعوناكم إلى توحيد الله ، تشاءمتم بنا وتوعدتمونا بالرجم والتعذيب ؟ **﴿بل أنتم قومٌ مسرفون﴾** أي ليس الأمر كما زعمتم بل أنتم قومٌ عادتكم الإسرافُ في العصيان والإجرام ، وهو توبيخٌ لهم مع الزجر والتقريع **﴿وجاء من أقصا المدينة رجلٌ يسعى﴾** أي وجاء من أبعد أطراف المدينة رجل يعدو ، يسرع في مشيه وهو « حبيب النجار » قال ابن كثير : إن أهل القرية همُّوا بقتل رسلهم ، فجاءهم رجل من أقصى المدينة يسعى لينصرهم من قومه ، وهو - حبيب النجار - كان يعمل الحرير وهو الحباك ، وكان كثير الصدقة يتصدق بنصف كسبه[١] وقال القرطبي : كان حبيب مجذوماً ومنزله عند أقصى أبواب المدينة ، وكان يعكف على عبادة الأصنام سبعين سنة يدعوهم لعلهم يرحمونه ويكشفون ضُرَّه ، فما استجابوا له ، فلما أبصر الرسل ودعوه إلى الله قال : هل من آية ؟ قالوا نعم نحن ندعو ربنا القادر فيفرج عنك ما بك ! فقال إن هذا لعجيبٌ ، إني أدعو هذه الآلهة سبعين سنة لتفرج عني فلم تستطع فكيف يفرجه ربكم في غداة واحدة ؟ قالوا نعم ربنا على ما يشاء قدير ، وهذه لا تنفع شيئاً ولا تضر ، فآمن ودعوا ربهم فكشف الله ما به ، فلمَّا همَّ قومه بقتل الرسل جاءهم مسرعاً وقال ما قصه القرآن[٢] **﴿قال يا قوم اتبعوا المرسلين﴾** أي اتبعوا الرسل الكرام الداعين إلى توحيد الله ، وإنما قال **﴿يا قوم﴾** تأليفاً لقلوبهم واستمالة لها لقبول النصيحة ، ثم كرر القول تأكيداً وبياناً للسبب فقال **﴿اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون﴾** أي اتبعوا هؤلاء الرسل الصادقين المخلصين ، الذين لا يسألونكم أجرة على الإيمان ، وهم على هدى وبصيرة فيما يدعونكم إليه من توحيد الله **﴿وما لي لا أعبدُ الذي فطرني وإليه تُرجعون﴾** تلطفٌ في الإرشاد لهم كأنه ينصح نفسه ، ويختار لهم ما يختار لنفسه ، وفيه نوع تقريع على ترك عبادة خالقهم والمعنى أيُّ شيء يمنعني من أن أعبد خالقي الذي أبدع خلقي؟ وإليه مرجعكم بعد الموت فيجازي كلاً بعمله ؟ **﴿أأتخذ من دونه آلهة﴾** استفهام إنكاري أي كيف أتخذ من دون الله آلهة لا تسمع ولا تنفع ولا تغني عن عابدها شيئاً ؟ **﴿إن يُردن الرحمنُ بضر لا تُغن عني شفاعتُهم شيئاً﴾** أي هي في المهانة والحقارة بحيث لو أراد الله أن يُنزل بي شيئاً من الضر والأذى وشفعت لي لم تنفع شفاعتهم ولم يقدروا على إنقاذي ، فكيف وهي أحجار لا تسمع ولا تنفع ولا تشفع ؟

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ١٥٩ والقول بأن اسم الرجل « حبيب النجار » مروي عن ابن عباس . (٢) تفسير القرطبي ١٥/ ١٨ وهذه رواية وهب ذكرها القرطبي .

إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ۞ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٣٠﴾

﴿ولا يُنقذون﴾ أي ولا يقدرون على إنقاذي من عذاب الله **﴿إنـي إذاً لفـي ضـلالٍ مبيـن﴾** أي إني إن عبدت غير الله واتخذت الأصنام آلهة لفي خسران ظاهر جلي . . وبعد النصح والتذكير أعلن إسلامه ، وأشهر إيمانه فقال **﴿إنـي آمنـتُ بربـكم فاسمعـون﴾** أي إني آمنت بربكم الذي خلقكم ، فاسمعوا قولي واعملوا بنصيحتي قال المفسرون : لما قال لهم ذلك ونصحهم وأعلن إيمانه ، وثبوا عليه وثبة رجلٍ واحد فقتلوه ، ولم يكن له أحد يمنع عنه أذاهم[1] قال الطبري : وثبوا عليه فوطئوه بأقدامهـم حتـى مات ، وقيل : رموه بالحجارة حتى مات[2] **﴿قيـل ادخـل الجنـة﴾** أي فلما مات قال الله له : ادخل الجنة مع الشهداء الأبرار ، جزاءً على صدق إيمانك وفوزك بالشهادة قال ابن مسعود : إنهم وطئوه بأرجلهم حتى خرجت أمعاؤه من دبره ، وقال الله له **﴿ادخل الجنـة﴾** فدخلها فهو يُرزق فيها ، قد أذهب الله عنه سقم الدنيا وحُزنها ونَصَبها[3] **﴿قـال يا ليـت قومـي يعلمون بما غفـر لي ربـي وجعلنـي من المكرميـن﴾** أي فلما دخل الجنة وعاين ما أكرمه الله بها لإيمانه وصبره تمنى أن يعلم قومه بحاله ، ليعلموا حسن مآله أي يا ليتهم يعلمون بالسبب الذي من أجله غفر لي ربي ذنوبي ، وأكرمني بدخول جنات النعيم قال ابن عباس : نصح قومه في حياته ، ونصحهم بعد مماته[4] قال أبو السعود : وإنما تمنّى علم قومه بحاله ليحملهم ذلك على اكتساب الثواب والأجر ، بالتوبة عن الكفر والدخول في الإيمان ، جرياً على سنن الأولياء في الترحم على الأعداء[5] **﴿ومـا أنزلنـا علـى قومـه مـنْ بعدِه مـن جُنـدٍ مـن السَّماء﴾** هذا تحقيرٌ لهم وتصغيرٌ لشأنهم **﴿إنْ كانتْ إلا صيحةً واحدة فإذا هم خامدون﴾** أي ما كانت عقوبتهم إلا صيحةً واحدة صاح بهم جبريل، فإذا هم ميتون لا حراك بهم، قد اخمدت أنفاسهم حتّى صاروا كالنار الخامدة قال المفسرون: وفي الآية استحقار لإهلاكهم فإنهم أذل وأهون على الله من أن يرسل الملائكة لإهلاكهم، وقد روي أنه لما قُتل «حبيب النجار» غضب الله تعالى له، فعجَّل لهم النقمة فأمر جبريل فصاح بهم صيحة واحدة، فماتوا عن آخرهم، فجعل طريق استئصالهم بالصيحة، ثم قال تعالى **﴿يا حسرةً على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون﴾** أي يا أسفاً على هؤلاء المكذبين لرسل الله المنكرين لآياته ويا حسرةً عليهم، ما جاءهم رسولٌ إلا كذبوه واستهزءوا به، وهكذا عادة المجرمين في كل زمان ومكان قال في حاشية البيضاوي: إنهم أحقاء بأن يتحسروا

(١) انظر مختصر ابن كثير ٣/ ١٥٩ . (٢) تفسير القرطبي ٢٢/ ١٠٤ . (٣) مختصر ابن كثير ٣/ ١٦٠ . (٤) هذا قول ابن عباس وقال صاحب الكشاف : وفي حديثٍ مرفوع : «نصح قومه حياً وميتاً» أقول. والمشهور أنه من كلام ابن عباس. (٥) تفسير أبي السعود ٤/ ٢٥٢ .

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾﴾

على أنفسهم أو يُتحسر عليهم، فإن الأمر لفخامته وشدته، بلغ إلى حيث إن كل من يتأتى منه التلهف إذا نظر إلى حال استهزائهم بالرسل تحسَّر عليهم، وقال: يا لها من حسرةٍ وخيبة على هؤلاء المحرومين، حيث بدَّلوا الإيمان بالكفر، والسعادة بالشقاوة[1]، وفي الآية تعريضٌ بكفار قريش حيث كذبوا سيد المرسلين. ولمّا مثل حال كفار مكة بحال أصحاب القرية وبَّخ المشركين على عدم اعتبارهم بمن سبقهم فقال **﴿ألم يَروا كم أهلكنا قبلهم من القُرون أنهم إليهم لا يرجعون﴾** أي ألم يتعظ هؤلاء المشركون بمن أهلك الله قبلهم من المكذبين للرسل، ويعلموا أن هؤلاء المهلكين لا عودة لهم إلى الدنيا بعد هلاكهم[2]؟ **﴿وإن كلٌ لمَّا جميع لدينا محضرون﴾** أي وأن جميع الأمم الماضية والآتية ستحضر للحساب والجزاء يوم القيامة بين يدي أحكم الحاكمين، فيجازيهم بأعمالهم كلها خيرها وشرها؟ قال **أبو حيان**: وجاءت هذه الجملة بعد ذكر الإهلاك تبييناً إلى أن الله تعالى لا يترك المهلكين بل بعد الهلاك جمعٌ وحساب، وثواب وعقاب[3].

البَــلاَغَــة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ ـ التأكيد بأكثر من مؤكد لأن المخاطب منكر مثل ﴿إنـك لمن المرسلين، إنا إليكـم لمرسلون﴾ فقد أُكد كل منهما بـ «إنَّ» و«اللام» ويسمى هذا الضرب إنكارياً.

٢ ـ الاستعارة التمثيلية ﴿إنـا جعلنـا في أعناقهـم أغلالاً ..﴾ الآية شبَّـه حال الكفار في امتناعهم من الهدى والإيمان بمن غلت يده إلى عنقه بالسلاسل والأغلال فأصبح رأسه مرفوعاً لا يستطيع خفضاً له ولا التفاتاً، وبمن سُدَّت الطُرقُ في وجهه فلم يهتد لمقصوده، وذلك بطريق الاستعارة التمثيلية.

٣ ـ الطباق ﴿من بيـن أيديهم .. ومن خلفهم﴾.

٤ ـ طباق السلب ﴿أأنذرتهـم أم لم تُنذرهـم﴾.

٥ ـ الجناس الناقص ﴿نحن نُحيي﴾ لتغير بعض الحروف.

٦ ـ الإطناب بتكرار الفعل ﴿اتبعوا المرسلين. اتبعوا من لا يسألكم أجراً﴾.

٧ ـ الاستفهام للتوبيخ ﴿أأتخذ من دونـه آلهة﴾؟

٨ ـ الحذف لدلالة السياق عليه ﴿قيل ادخل الجنة﴾ أي فلما أشهر إيمانه قتلوه فقيل له ادخل الجنة.

٩ ـ جناس الاشتقاق بين ﴿تطيرنا .. وطائركم﴾ وبين ﴿أرسلنا .. والمرسلون﴾.

(١) حاشية زادة على البيضاوي ٣/ ١٢٨. (٢) مختصر ابن كثير ٣/ ١٦١. (٣) البحر المحيط ٧/ ٣٣٥.

١٠ ـ مراعاة الفواصل وهو من خصائص القرآن لما فيه من روعة البيان ، وحسن الوقع على السمع ، وهو كثير مشهور .

تنبيه : من محاسن التنزيل الكريم وبلاغته الخارقة ، هو الإيجاز في القصص والأنباء ، والإشارة إلى روحها وسرّها ، لأن القصد من القصص التذكير والاعتبار ، ولهذا لم يذكر في القصة اسم البلدة ، ولا اسم الشخص الذي دعاهم إلى الله ، ولا اسم الرسل الكرام ، لأن كل ذلك ليس هو الهدف من القصة ، وقس على هذا سائر قصص القرآن .

* * *

قال الله تعالى :﴿وآيةٌ لهم الأرض الميتة أحييناها . . إلى . .سلامٌ قولاً من رب رحيم﴾ من آية (٣٣) إلى نهاية آية (٥٨) .

المناسبة : لما ذكر تعالى قصة أهل القرية ، وإهلاك الله لهم بالصيحة بسبب تكذيبهم المرسلين ، ذكر هنا الأدلة والبراهين على القدرة والوحدانية ، في إخراج الزروع والثمار ، وتعاقب الليل والنهار ، وفي الشمس والقمر يجريان بقدرة الواحد القهار ، ثم ذكر شبهات المشركين حول البعث ، وردّ عليها بالأدلة القاطعة ، والبراهين الساطعة .

اللغة : ﴿آية﴾ علامة لأنها دالة على وجود الله قال أبو العتاهية :

فيا عجباً كيف يُعصى الإلهُ أمْ كيف يجْحده الجاحِدُ ؟
وللّـهِ في كل تحريكةٍ وتسكينةٍ أبداً شاهد
وفي كل شيءٍ له آيةٌ تدل على أنه واحد

﴿الأزواج﴾ الأصناف والأنواع ﴿نسلخ﴾ السَّلخ : الكشط والنزع قال تعالى « فانسلخ منها » ويقال : سلخ الجزار جلد الشاة أي نزع الجلد عن اللحم ﴿العُرجون﴾ من الانعراج وهو الانعطاف ، والعرجون : عود عذق النخلة الذي فيه عناقيد الرطب قال الجوهري : هو أصل العذق الذي يعوجُّ وتقطع منه الشماريخ فيبقى على النخل يابساً[1] ﴿المشحون﴾ المملوء الموقر بالأشياء الثقيلة ﴿صريخ﴾ مغيث ﴿يَخِصِّمون﴾ يختصمون في أمورهم غافلين عما حولهم ﴿الأجداث﴾ جمع جدث وهو القبر ﴿ينسلون﴾ يسرعون في الخروج ، يقال : عسل الذئبُ ونسل أي أسرع في المشي[2] .

وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾

التفسير : ﴿وآيةٌ لهم الأرض الميتةُ أحييناها﴾ أي ومن الآيات الباهرة ، والعلامات الظاهرة الدالة على كمال قدرة الله ووحدانيته هذه الآية العظيمة ، وهي الأرض اليابسة الهامدة التي لا نبات فيها ولا زرع ، أحييناها بالمطر قال المفسرون : موتُ الأرض جدبها ، وإحياؤ ها بالغيث ، فإذا أنزل الله عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوجٍ بهيج ولهذا قال تعالى بعده ﴿وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون﴾

(١) انظر القرطبي ١٥/ ٣١ والقاموس المحيط والصحاح . (٢) تفسير القرطبي ١٥/ ٤٠ .

وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ

أي وأخرجنا بهذا الماء أنواع الحبوب ليتغذوا به ويعيشوا قال القرطبي : نبَّههم تعالى بهذا على إحياء الموتى ، وذكَّرهم على توحيده وكمال قدرته ، بالأرض الميتة أحياها بالنبات ، وإخراج الحب منها ، فمن الحبِّ يأكلون وبه يتغذون[1] ﴿وجعلنا فيها جناتٍ من نخيلٍ وأعنابٍ﴾ أي وجعلنا في الأرض بساتين ناضرة فيها من أنواع النخيل والعنب ﴿وفجرنا فيها من العيون﴾ أي وجعلنا فيها ينابيع من الماء العذب ، والأنهار السارحة في بلدان كثيرة ﴿ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم﴾ أي ليأكلوا من ثمرات ما ذُكر من الجنات والنخيل التي أنشأها لهم ، ومما عملته أيديهم مما غرسوه وزرعوه بأنفسهم قال ابن كثير : لما امتنَّ على خلقه بإيجاد الزروع لهم ، عطف بذكر الثمار وأنواعها وأصنافها ، وما ذاك كله إلا من رحمة الله تعالى بهم ، لا بسعيهم وكدِّهم ، ولا بحولهم وقوتهم ولهذا قال ﴿أفلا يشكرون﴾ ؟ أي أفلا يشكرونه على ما أنعم به عليهم ؟ واختار ابن جرير أنَّ « ما » بمعنى الذي أي ليأكلوا من ثمره ومما عملته أيديهم أي من الذي غرسوه ونصبوه[2] ﴿سبحان الذي خلَق الأزواجَ كلَّها﴾ أي تنزَّه وتقدَّس الله العلي الجليل الذي خلق الأصناف كلها ، المختلفة الألوان والطعوم والأشكال من جميع الأشياء ﴿ممَّا تُنبت الأرضُ ومن أنفسهم ومما لا يعلمون﴾ أي ممَّا تُخرج الأرضُ من النخيل والأشجار ، والزروع والثمار ، ومن أنفسهم من الذكور والإناث ، ومما لا يعلمون من المخلوقات العجيبة والأشياء[3] الغريبة كما قال تعالى ﴿ومن كل شيءٍ خلقنا زوجين لعلكم تذكَّرون﴾ ﴿وآيةٌ لهم الليلُ نسلخُ منه النهار فإذا هم مُظلمون﴾ أي وعلامةٌ أخرى لهم على كمال قدرتنا الليلُ نزيل عنه الضوء ونفصله عن النهار فإذا هم داخلون في الظلام ، وفي الآية رمزٌ إلى أن الأصل هو الظلام والنور عارض ، فإذا غربت الشمس ينسلخ النهار من الليل ويُكشف ويزول فيظهر الأصل وهو الظلمة ﴿والشمسُ تجري لمستقرٍ لها﴾ أي وآيةٌ أخرى لهم الشمس تسير بقدرة الله في فَلَك لا تتجاوزه ولا تتخطَّاه لزمنٍ تستقر فيه ، ولوقتٍ تنتهي إليه وهو يوم القيامة حيث ينقطع جريانها عند خراب العالم قال ابن كثير : وفي قوله تعالى ﴿لمستقرٍ لها﴾ قولان : أحدهما : أن المراد مستقرها المكاني وهو تحت العرش مما يلي الأرض لحديث البخاري أن النبي

---

(١) تفسير القرطبي ١٥/ ٢٥ . (٢) مختصر ابن كثير ٣/ ١٦٢ . (٣) سبحان الله ما أعظم قدرة الله لقد كان السائد أن الزوجية إنما تكون بين الإنسان والحيوان فقط ، وجاء القرآن بالمعجزة الباهرة المثبتة لما اكتشفه العلم الحديث منذ زمن قريب وهي أن الزوجية بين الإنسان والحيوان والنبات والذرة وسائر الكائنات ، فقد ثبت أن الذرة ـ وهي أصغر أجزاء المادة ـ مؤلفة من زوجين مختلفين من الإشعاع الكهربائي « سالب وموجب » يتزاوجان يتحدان ، وأن بين النبات أعضاء مذكرة وأعضاء مؤنثة ، فسبحان العلي القدير القائل ﴿سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون﴾ .

﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾

ﷺ قال: (يا أبا ذر أتدري أين تغرب الشمس ؟ قلت : اللهُ ورسوله أعلم ، قال : فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش . .) الحديث . والثاني : أن المراد بمستقرها هو منتهى سيرها وهو يوم القيامة ، حيث يبطل سيرها ، وتسكن حركتها ، وتُكور وينتهي هذا العالم إلى غايته ، وقرىء ﴿لا مستقر لها﴾ أي لا قرار لها ولا سكون ، بل هي سائرة ليلاً ونهاراً ، لا تفتر ولا تقف[١] ﴿ذلك تقدير العزيز العليم﴾ أي ذلك الجري[٢] والدوران بانتظام وبحساب دقيق هو تقدير الإِله العزيز في ملكه ، العليم بخلقه ﴿والقمر قدَّرناه منازل﴾ أي والقمرَ قدرنا مسيره في منازل يسير فيها لمعرفة الشهور ، وهي ثمانية وعشرون منزلاً في ثمانية وعشرين ليلة ، ينزل كل ليلةٍ في واحد منها لا يتخطاها ولا يتعداها ، فإذا كان في آخر منازله دقَّ واستقوس ﴿حتى عاد كالعرجون القديم﴾ أي حتى صار كغصن النخل اليابس ، وهو عنقود التمر حين يجف ويصفر ويتقوس قال ابن كثير : جعل الله القمر لمعرفة الشهور ، كما جعل الشمس لمعرفة الليل والنهار ، وفاوت بين سير الشمس وسير القمر ، فالشمس تطلع كل يوم وتغرب في آخره ، وتنتقل في مطالعها ومغاربها صيفاً وشتاءً ، يطول بسبب ذلك النهار ويقصر الليل ، ثم يطول الليل ويقصر النهار ، وهي كوكبٍ نهاري ، وأما القمر فقدَّره منازل يطلع في أول ليلةٍ من الشهر ضئيلاً قليل النور ، ثم يزداد نوراً في الليلة الثانية ويرتفع منزلة ، ثم كلما ارتفع ازداد ضياؤه حتى يتكامل نوره في الليلة الرابعة عشرة ، ثم يشرع في النقص إلى آخر الشهر حتى يصير كالعرجون القديم قال مجاهد : أي العذق اليابس وهو عنقود الرطب إذا عتق ويبس وانحنى ، ثم يبدأ جديداً في أول الشهر الآخر[٣] ﴿لا الشمسُ ينبغي لها أنْ تُدرك القمر﴾ أي لا يمكن للشمس ولا يصح لها أن تجتمع مع القمر بالليل فتمحو نوره ، لأن ذلك يُخلُّ بتلوين النبات ، ومصلحة العباد قال الطبري : أي لا الشمس يصلح لها إدراك القمر ، فيُذهب ضوءها نوره فتكون الأوقات كلها نهاراً لا ليل فيها ﴿ولا الليلُ سابقُ النهار﴾ أي ولا الليل يسبق النهار حتى يدركه فيذهب بضيائه فتكون الأوقات كلها ليلاً[٤] ﴿وكلٌ في فلكٍ يسبحون﴾ أي وكلٌ من الشمس والقمر والنجوم تدور في فلك السماء قال الحسن : الشمس والقمر والنجوم في فَلَك بين السماء والأرض ، غير ملصقة بشيء ولو كانت ملصقة ما جرت[١] والغرضُ من الآية : بيانُ قدرة الله في

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ١٦٢/٣ . (٢) يقول الشهيد سيد قطب في تفسيره الظلال : « والشمس تدور حول نفسها وكان المظنون أنها ثابتة في موضعها الذي تدور فيه ، ولكن عرف أخيراً أنها ليست مستقرة في مكانها إنما هي تجري فعلاً في اتجاه واحد في الفضاء الكوني الهائل بسرعة حسبها الفلكيون باثني عشر ميلاً في الثانية ، والله ربها الخبير بها وبجريانها وبمصيرها يقول إنها ﴿تجري لمستقر لها﴾ هذا المستقر الذي تنتهي إليه لا يعلمه إلا هو سبحانه وتعالى . . وحين تصور أن حجم هذه الشمس يبلغ نحو مليون ضعف لحجم أرضنا هذه ، وأن هذه الكتلة الهائلة تتحرك وتجري في الفضاء لا يسندها شيء ، ندرك طرفاً من صفة القدرة التي تصرف هذا الوجود عن قوة وعن علم ، وصدق الله ﴿ذلك تقدير العزيز العليم﴾ » . (٣) مختصر ابن كثير ١٦٣/٣ . (٤) تفسير الطبري ٦/٢٣ .

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾

تسيير هذا الكون بنظام دقيق ، فالشمس لها مدار ، والقمر له مدار ، وكل كوكب من الكواكب له مدار لا يتجاوزه في جريانه أو دورانه، ولا يطغى أحدهما على الآخر ـ كما قال قتادة: «لكل حدٌّ وعلمٌ لا يعدوه، ولا يقصر دونه»ـ حتى يأتي الأجل المعلوم بخراب العالم ، فيجمع الله بين الشمس والقمر كما قال تعالى ﴿وجُمع الشمس والقمر﴾ فيختل نظام الكون ، وتقوم القيامة ، وتنتهي حياة البشرية عن سطح هذا الكوكب الأرضي[٢] ﴿وآيةٌ لهم أنا حملنا ذريتهم في الفُلك المشحون﴾ أي وعلامة أخرى واضحة للناس على كمال قدرتنا أننا حملنا آباءهم الأقدمين ـ وهم ذرية آدم ـ في سفينة نوح عليه السلام التي أمره الله أن يحمل فيها من كلٍ زوجين اثنين قال في التسهيل : وإنما خصَّ ذريتهم بالذكر ، لأنه أبلغ في الامتنان عليهم ، ولأن فيه إشارة إلى حمل أعقابهم إلى يوم القيامة[٣] ﴿وخلقنا لهم من مثله ما يركبون﴾ أي وخلقنا لهم من مثل سفينة نوح السفن العظيمة التي يركبونها ويبلغون عليها أقصى البلدان ، وإنما نسب الخلق إليه لأنها بتعليم الله جل وعلا للإنسان وقال ابن عباس : هي الإبل وسائر المركوبات ، فهي في البر مثل السفن في البحر[٤] ﴿وإن نشأ نغرقْهم فلا صريخ لهم﴾ ولو أردنا لأغرقناهم في البحر فلا مغيث لهم ﴿ولا هم يُنقذون﴾ أي ولا أحد يستطيع أن ينقذهم من الغرق ﴿إلا رحمةً منا ومتاعاً إلى حين﴾ أي لا ينقذهم أحد إلا نحن لأجل رحمتنا إياهم ، وتمتيعنا لهم إلى انقضاء آجالهم . . بيَّن تعالى أن ركوبهم السفن في البحر من الآيات العظيمة ، فإن سير السفينة بما فيها من الرجال والأثقال فوق سطح الماء آية باهرة فقد حملتهم قدرة الله ونواميسه التي تحكم الكون وتصرفه بحكم خواص السفن ، وخواص الماء ، وخواص الريح ، وكلُّها من أمر الله وخلقه وتقديره ، والسفينة في البحر الخضم كالريشة في مهبٍّ الهواء ، وإلاّ تدركها رحمة الله فهي هالكة في لحظة من ليل أو نهار ، والذين ركبوا البحار ، وشاهدوا الأخطار ، يدركون هول البحر المخيف ، ويحسون معنى رحمة الله وأنها وحدها هي المنجي لهم من بين العواصف والتيارات ، في هذا الخضم الهائل الذي تمسكه يد الرحمة ويعرفون معنى قوله تعالى ﴿إلا رحمةً منا﴾ فسبحان الله القدير الرحيم ! ! ﴿وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم تُرحمون﴾ لما ذكَّرهم تعالى بدلائل قدرته ، وآثار رحمته ، أخبر هنا عن تعاميهم عن الحق ، وإعراضهم

---

(١) تفسير القرطبي ١٥/ ٣٣ .

(٢) يقول سيد قطب رحمه الله « المسافات بين النجوم والكواكب مسافات هائلة وقد قدَّر الله خالق هذا الكون أن تقوم هذه المسافات الهائلة بين مدارات النجوم ليحفظه بمعرفته من التصادم والتصدع ، وحركة هذه الأجرام في الفضاء الهائل أشبه بحركة السفين في الخضم الفسيح ، فهي ـ على ضخامتها ـ لا تزيد على أن تكون نقطاً سابحة في ذلك الفضاء المرهوب » ! !

(٣) التسهيل في علوم التنزيل ٣/ ١٦٤ .

(٤) تفسير القرطبي ١٥/ ٣٥ وهناك قول آخر عن عباس أن المراد بقوله ﴿من مثله﴾ السفن أي خلق لهم سفناً أمثال سفينة نوح يركبونها وهو الأظهر لقوله بعده ﴿وإن نشأ نغرقهم﴾ .

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾﴾

عن الهدى والإيمان ، مع كثرة الآيات الواضحات ، والشواهد الباهرات والمعنى وإذا قيل للمشركين احذروا سخط الله وغضبه ، واعتبروا بما حلَّ بالأمم السابقين قبلكم من العذاب بسبب تكذيبهم الرسل ، واحذروا ما وراءكم من عذاب الآخرة لكي تُرحموا ، وجواب الشرط محذوف تقديره أعرضوا واستكبروا ودلّ عليه قوله تعالى ﴿إلا كانوا عنها معرضين﴾ قال القرطبي : والجواب محذوف والتقدير : إذا قيل لهم ذلك أعرضوا ، ودليله الآية التي بعدها ﴿وما تأتيهم من آية . .﴾ فاكتفى بهذا عن ذلك[1] ﴿وما تأتيهم من آيةٍ من آياتِ ربهم إلا كانوا عنها معرضين﴾ أي وما تأتي هؤلاء المشركين علامة من العلامات الواضحة الدالة على صدق الرسول ـ كالمعجزات الباهرة التي أيده الله بها ـ إلا أعرضوا عنها على وجه التكذيب والاستهزاء قال أبو السعود : وإضافة الآيات إلى اسم الرب جل وعلا لتفخيم شأنها ، المستتبع لتهويل ما اجترءوا عليه في حقها ، والمراد بالآيات إما الآيات التنزيلية التي من جملتها الآيات الناطقة ببدائع صنع الله وسوابغ آلائه ، أو الآيات التكوينية الشاملة للمعجزات وغيرها من تعاجيب المصنوعات ، التي من جملتها ما ذُكر من شئونه الشاهدة بوحدانيته تعالى ، وتفرده بالألوهية[2] ﴿وإذا قيل لهم أنفقوا ممّا رزقكم الله﴾ أي وإذا قيل لهؤلاء الكفار بطريق النصيحة أنفقوا بعض ما أعطاكم الله من فضله على الفقراء والمساكين ﴿قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه﴾ أي قال الكفار للمؤمنين تهكماً بهم : أننفق أموالنا على هؤلاء المساكين الذين أفقرهم الله ؟ ﴿إن أنتم إلا في ضلال مبين﴾ أي ما أنتم أيها المؤمنون إلا في ضلال ظاهر واضح حيث تأمروننا أن ننفق أموالنا على من أفقرهم الله قال ابن عباس : كان بمكة زنادقة فإذا أُمروا بالصدقة على المساكين قالوا : لا والله لا نفعل ، أيفقره الله ونطعمه نحن[3] ؟ وغرضهم الرد على المؤمنين فكأنهم يقولون : لو كان الأمر كما تزعمون أن الله قادر ، وأن الله رازق لأطعم هؤلاء الفقراء ، فما بالكم تطلبون إطعامهم منا ؟ وما علم هؤلاء السفهاء أن خزائن الأرزاق بيد الخلاق ، وأنه تعالى أغنى بعض الخلق وأفقر بعض الخلق ابتلاءً ، لينظر كيف عطف الغني ، وكيف صبر الفقير ، فقد منع الدنيا عن الفقير لا بخلاً ، وأمر الغنيَّ بالإنفاق عليه لا حاجة إلى ماله ، ولكن للإبتلاء والله يفعل ما يشاء ، لا اعتراض لأحدٍ في مشيئته ولا في حكمه ﴿لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون﴾ ثم أخبر عن إنكار المشركين للآخرة ، واستبعادهم لقيام الساعة فقال ﴿ويقولون متى هذا الوعدُ إن كنتم صادقين﴾ أي متى يوم القيامة الذي تتوعدوننا به ؟ ومتى

(١) تفسير القرطبي ١٥/ ٣٦ . (٢) تفسير أبي السعود ٤/ ٢٥٥ . (٣) تفسير القرطبي ١٥/ ٣٧ قال القرطبي : وإنما أخرجوا هذا الجواب مخرج الاستهزاء بالمؤمنين .

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾

هذا العذاب الذي تخوفوننا به إن كنتم صادقين في دعواكم أن هناك بعثاً ونشوراً وحساباً وعذاباً ؟ قال تعالى رداً عليهم ﴿ما ينظرون إلا صيحةً واحدة تأخذهم﴾ أي ما ينتظرون إلا صيحةً واحدة تأخذهم مفاجأة من حيث لا يشعرون ﴿وهم يخصِّمون﴾ أي وهم يتخاصمون في معاملاتهم وأسواقهم ، فلا يشعرون إلا بالصيحة قد أخذتهم ، فيموتون في أماكنهم قال ابن كثير : وهذه ـ والله أعلم ـ نفخة الفزع ، ينفخ إسرافيل في الصور والناسُ في أسواقهم ومعايشهم يختصمون ويتشاجرون على عادتهم ، فبينما هم كذلك إذْ أمر الله إسرافيل فنفخ في الصور نفخةً يطوِّلها ويمدُّها ، فلا يبقى أحدٌ على وجه الأرض إلا حنى عنقه يتسمع الصوت من قبل السماء[1] فذلك قوله تعالى ﴿فلا يستطيعون توصيةً ولا إلى أهلهم يرجعون﴾ أي فلا يستطيع بعضهم أن يوصي بعضاً بأمر من الأمور ، ولا يستطيعون أن يرجعوا إلى أهلهم ومنازلهم لأن الأمر أسرع منه ذلك وفي الحديث : (لتقومنَّ الساعة وقد نشر الرجلان ثوباً بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه ، ولتقومنَّ الساعةُ وهو يُليط حوضه ـ أي يصلحه بالطين ـ فلا يسقي فيه ، ولتقومنَّ الساعةُ وقد رفع أُكلته إلى فيه فلا يطعمها)[2] ثم تكون هناك النفخة الثانية وهي « نفخة الصَّعق » التي يموت بها الأحياء كلهم ما عدا الحيَّ القيوم ، ثم تكون النفخة الثالثة وهي « نفخة البعث والنشور » التي يخرج الناسُ بها من القبور ، وهي التي أشارت إليها الآية الكريمة ﴿ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون﴾ أي ونفخ في الصور فإذا هؤلاء الأموات يخرجون من قبورهم يسرعون المشي قال الطبري : ﴿ينسلون﴾ يخرجون سراعاً ، والنَّسلان : الإسراع في المشي[3] ﴿قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا﴾ ؟ أي يقولون يا هلاكنا من الذي أخرجنا من قبورنا التي كنا فيها ؟ قال ابن كثير : وهذا لا ينفي عذابهم في قبورهم ، لأنه بالنسبة إلى ما بعده في الشدة كالرقاد ، فإذا قالوا ذلك أجابتهم الملائكة أو المؤمنون[4] ﴿هذا ما وعدَ الرحمنُ وصدق المرسلون﴾ أي هذا الذي وعدكم الله به من البعث بعد الموت والحساب والجزاء ، وصدق رسله الكرام فيما أخبرونا به عن الله ﴿إن كانت إلا صيحةً واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون﴾ أي ما كان أمر بعثهم إلا صيحةً واحدة يصيح بهم فيها إسرافيل فإذا هم جميع عندنا حاضرون قال الصَّاوي : وهذه الصيحة هي قول إسرافيل : أيتها العظام النخرة ،

(١) مختصر ابن كثير ٣/ ١٦٥ وهذا الذي قاله ابن كثير هو اختيار الطبري وأن المراد بها نفخة الفزع وقال القرطبي : هي نفخة الصَّعق التي يموت بها جميع الأحياء . (٢) أخرجه البخاري . (٣) الطبري ٢٣/ ١١ . (٤) مختصر ابن كثير ٣/ ١٦٦ .

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾

والأوصال المتقطعة ، والأجزاء المتفرقة ، والشعور المتمزقة ، إنَّ الله يأمركنَّ أن تجتمعن لفصل القضاء ثم ينفخ في الصور فإذا هم مجموعون في موقف الحساب[1] ﴿فاليوم لا تُظلم نفسٌ شيئاً ولا تُجزون إلا ما كنتم تعملون﴾ أي ففي هذا اليوم - يوم القيامة - لا تُظلم نفس شيئاً ، سواءً كانت هذه النفس برَّة أو فاجرة ، ولا يُحمَّل الإِنسان وزر غيره وإنما يُجازى كلٌ بعمله قال أبو السعود : وهذه حكاية لما سيقال لهم في الآخرة ، حين يرون العذاب المُعدَّ لهم تحقيقاً للحق ، وتقريعاً لهم[2] . . ولما أخبر عن مآل المجرمين أخبر عن حال الأبرار المتقين فقال ﴿إن أصحاب الجنةِ اليوم في شغُلٍ فاكهون﴾ أي إن أصحاب الجنة في ذلك اليوم - يوم الجزاء - مشغولون بما هم فيه من اللذات والنعيم عن التفكير بأهل النار ، يتفكهون ويتلذذون بالحور العين ، وبالأكل والشرب والسماع للأوتار قال أبو حيان : والظاهر أن الشغل هو النعيم الذي قد شغلهم عن كل ما يخطر بالبال وقال ابن عباس : شُغلوا بافتضاض الأبكار ، وسماع الأوتار عن أهاليهم من أهل النار ، لا يذكرونهم لئلا يتنغصوا[3] ﴿هم وأزواجهم في ظلالٍ على الأرائك متكئون﴾ أي هم وزوجاتهم في ظلال الجنان الوارفة ، حيث لا شمس فيها ولا زمهرير ، متكئون على السرر المزيَّنة بالثياب والستور ﴿لهم فيها فاكهةٌ﴾ أي لهم في الجنة فاكهة كثيرة من كل أنواع الفواكه ﴿ولهم ما يدَّعون﴾ أي ولهم فيها ما يتمنون ويشتهون كقوله تعالى ﴿وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين﴾ ﴿سلامٌ قولاً من ربٍ رحيم﴾ أي لهم سلامٌ كريم من ربهم الرحيم ، وفي الحديث (بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع عليهم نور ، فرفعوا رءوسهم فإذا الرب تعالى قد أشرف عليهم من فوقهم فقال : السلام عليكم يا أهل الجنة فذلك قوله تعالى ﴿سلامٌ قولاً من ربٍ رحيم﴾ قال : فينظر إليهم وينظرون إليه ، فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم ، ويبقى نوره وبركته عليهم في ديارهم)[4] .

البَـلاغَـة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ - التنكير للتفخيم والتعظيم ﴿وآيةٌ لهم﴾ أي آية عظيمة باهرة على قدرة الله .

٢ - الطباق بين الموت والإِحياء ﴿الأرضُ الميتةُ أحييناها﴾ وبين الليل والنهار .

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/٣٢٨ . (٢) أبو السعود ٤/٢٥٧ . (٣) البحر المحيط ٧/٣٤٢ . (٤) أخرجه ابن أبي حاتم قال ابن كثير : وفي إسناده نظر كذا في المختصر لابن كثير ٣/١٦٧ ، ورواه ابن ماجه في سننه .

٣ ـ الاستعارة التصريحية ﴿وآية لهم الليلُ نسلخ منه النهار﴾ شبَّه إزالة ضوء النهار وانكشاف ظلمة الليل بسلخ الجلد عن الشاة ، واستعار اسم السلخ للإزالة والإخراج واشتق منه نسلخ بمعنى نخرج منه النهار بطريق الاستعارة التصريحية ، وهذا من بليغ الاستعارة ، وبين الليل والنهار طباق .

٤ ـ التشبيه المرسل المجمل ﴿حتى عاد كالعرجون القديم﴾ وجه الشبه مركب من ثلاثة أشياء : الرقة ، والانحناء ، والصفرة ، ولما لم يذكر سمي مجملاً .

٥ ـ تقديم المسند إليه لتقوية الحكم المنفي ﴿لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر﴾ فإنه أبلغ من أن يقول : لا ينبغي للشمس أن تدرك القمر ، وأكد في إفادة أنها مسخرة لا يتيسر لها إلا ما أريد بها فإنَّ قولك « أنت لا تكذب » بتقديم المسند إليه أبلغ من قولك « لا تكذب » فإنه أشدُّ لنفي الكذب من العبارة الثانية فتدبر أسرار القرآن[1] .

٦ ـ تنزيل غير العاقل منزلة العاقل ﴿وكلٌ في فلك يسبحون﴾ بدل يسبح ، فقد عبر عن الشمس والقمر والكواكب بضمير جمع المذكر ، والذي سوَّغ ذلك وصفهم بالسباحة لأنها من صفات العقلاء[2] .

٧ ـ الاستعارة اللطيفة ﴿من بعثنا من مرقدنا﴾ المرقد هنا عبارة عن الممات ، فشبهوا حال موتهم بحال نومهم لأنها أشبه الأشياء بها وأبلغ من قوله : من بعثنا من مماتنا .

٨ ـ الإيجاز بالحذف ﴿هذا ما وعد الرحمن﴾ أي تقول لهم الملائكة هذا ما وعدكم به الرحمن .

٩ ـ الطباق ﴿قال الذين كفروا للذين آمنوا﴾ والاستفهام الذي يراد منه التهكم ﴿أنطعم من لو يشاء الله أطعمه﴾ .

١٠ ـ السجع غير المتكلف في ختام الآيات الكريمة مثل ﴿وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون﴾ ﴿وفجرنا فيها من العيون﴾ ﴿من أنفسهم ومما لا يعلمون﴾ ﴿فإذا هم مظلمون﴾ ومثل ﴿ذلك تقدير العزيز العليم﴾ و﴿حتى عاد كالعرجون القديم﴾ وهو من المحسنات البديعة[3] .

* * *

قال الله تعالى :﴿وامتازوا اليوم أيها المجرمون. . إلى . . ملكوت كل شيء وإليه ترجعون﴾ من آية (٥٩) إلى آية (٨٣) نهاية السورة .

المناسبة : لما ذكر تعالى حال السعداء الأبرار وما لهم في الجنة من النعيم المقيم ، أعقبه بذكر حال الأشقياء الفجار وما لهم من الخزي والدمار ، على طريقة القرآن في الترغيب والترهيب ، وختم

(١) انظر حاشية الشيخ زادة على البيضاوي ٣/ ١٣٢ (٢)انظر حاشية الصاوي على الجلالين ٣/ ٣٢٦

(٣) ذكرنا بعض الأمثلة البلاغية على سبيل المثال لا الحصر ، حتى يتذوق الإنسان بعض روائع القرآن ، وإلا فكلام الله معجز وفيه من الروائع البيانية ما يعجز عن وصفه اللسان ، فسبحان منزل القرآن ! !

﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (٥٩) * أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٠) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (٦٢) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٦٣)﴾

السورة الكريمة ببيان أدلة البعث بعد الموت ، والحساب والجزاء .

اللغــة : ﴿امتازوا﴾ تميزوا وانفصلوا ، والتمييزُ : التفريق بين أمرين ﴿جِبِلاً﴾ بكسر الجيم خلقاً جمع جِبِلَّة ومنه « والجِبِلَّة الأولين » مشتق من جبل اللهُ الخلق أي خلقهم ﴿طمسنا﴾ الطمسُ : إذهابُ الشيء وأثره جملةً كأنه لم يوجد ﴿اصلوها﴾ ادخلوها وذوقوا سعيرها ﴿مسخناهم﴾ المسخ : التحويل من صورة إلى صورة منكرة ﴿نعمره﴾ التعمير : إطالة العمر حتى يبلغ سن الشيخوخة ﴿ننكسه﴾ التنكيس : قلب الشيء رأساً على عقب يقال : نكستُ الشيء نكساً إذا قلبته على رأسه ومنه ﴿ثم نكسوا على رءوسهم﴾ ﴿رميم﴾ الرميم : البالي المفتَّت يقال رمَّ العظم أي بلي فهو رميم .

سبب النزول : روي أن « أبي بن خلَف » من صناديد كفار قريش جاء بعظم بالٍ إلى النبي ﷺ ففتَّه بيده ثم قال : أتزعم يا محمد أن الله يُحيي هذا بعدما رمَّ ؟ فقال له النبي ﷺ نعم يحييه ، ثم يبعثك ويدخلك النار فأنزل الله تعالى ﴿أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيمٌ مبين . وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم﴾[1] .

التفسير : بعد أن بيَّن تعالى حال السعداء ذكر حال الأشقياء فقال ﴿وامتازوا اليوم أيها المجرمون﴾ أي تميزوا وانفصلوا يا معشر الكفرة المجرمين عن عبادي المؤمنين ، انفردوا عنهم وكونوا جانباً قال القرطبي : يقال لهم هذا عند الوقوف للسؤال ، وحين يؤمر بأهل الجنة إلى الجنة[2] ﴿ألم أعهدْ إليكم يا بني آدم﴾ الاستفهام للتوبيخ والتقريع ، وهو توبيخٌ للكفرة المجرمين أي ألم أوصكم وآمركم يا بني آدم على ألسنة رسلي ﴿أن لا تعبدوا الشيطان﴾ أي ألاّ تطيعوا الشيطان فيما دعاكم إليه من معصيتي ؟ ﴿إنه لكم عدوٌّ مبين﴾ تعليلٌ للنهي أي لأنه عدوٌّ لكم ظاهر العداوة ، فكيف يطيع الإنسان عدوه ؟ ﴿وأن اعبدوني﴾ أي وأمرتكم بأن تعبدوني وحدي ، بتوحيدي وطاعتي وامتثال أمري ﴿هذا صراطٌ مستقيم﴾ أي هذا هو الدين الصحيح ، والطريق الحقُّ المستقيم ﴿ولقد أضلَّ منكم جِبِلاً كثيراً﴾ تأكيد للتعليل أي ولقد أضلَّ الشيطان خلقاً منكم كثيرين ، وأغواهم عن سلوك طريق الحقِّ قال الطبري : أي صدَّ الشيطان منكم خلقاً كثيراً عن طاعتي حتى عبدوه[3] ﴿أفلم تكونوا تعقلون﴾ أي أفما كان لكم عقل يردعكم عن طاعة الشيطان ومخالفة أمر ربكم ؟ وهو توبيخ آخر للكفرة الفجار . . ثم بشرهم بما ينتظرهم من العذاب فقال ﴿هذه جهنمُ التي كنتم تُوعدون﴾ أي هذه نار جهنم التي

(١) انظر تفسير القرطبي ١٥/٥٨ والبحر المحيط ٧/٣٤٨ . (٢) تفسير القرطبي ١٥/ ٤٦ . (٣) تفسير الطبري ٢٣/ ١٦ .

ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾

أوعدكم بها الرسل وكذبتم بها قال الصاوي : هذا خطاب لهم وهم على شفير جهنم ، والمقصود منه زيادة التبكيت والتقريع[1] ﴿اصلوها اليومَ بما كنتم تكفرون﴾ أي ذوقوا حرارتها وقاسوا أنواع عذابها اليوم بسبب كفركم في الدنيا ، وهو أمر إهانةٍ وتحقير مثل قوله ﴿ذقْ إنك أنت العزيز الكريم﴾ ثم أخبر تعالى عن فضيحتهم يوم القيامة على رءوس الأشهاد فقال ﴿اليومَ نختم على أفواههم﴾ أي في هذا اليوم ـ يوم القيامة ـ نختم على أفواه الكفار ختماً يمنعها عن الكلام ﴿وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون﴾ أي تنطق عليهم جوارحهم أيديهم وأرجلهم بأعمالهم القبيحة روى ابن جرير الطبري عن أبي موسى الأشعري أنه قال « يُدعى الكافر والمنافق يوم القيامة للحساب فيعرض عليه ربه عمله فيجحده ويقول : أي ربٍّ وعزتك لقد كتب عليَّ هذا الملك ما لم أعمل ، فيقول الملك : أما عملت كذا في يوم كذا في مكان كذا فيقول : لا وعزتك أي رب ما عملته ، فإذا فعل ذلك خُتم على فيه وتكلمت أعضاؤه ثم تلا ﴿اليوم نختم على أفواههم﴾[2] وفي الحديث (يقول العبد يا ربٌّ ألم تجرني من الظلم ؟ فيقول : بلى ، فيقول العبد فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهداً مني ، فيقول : كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً ، وبالكرام الكاتبين شهوداً ، ثم يختم على فيه ويقال لجوارحه انطقي ، فتنطق بأعماله ثم يُخلى بينه وبين الكلام فيقول : بُعداً لكنَّ وسحقاً فعنكنَّ كنت أناضل)[3] ﴿ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنى يبصرون﴾ أي لو شئنا لأعميناهم فابتدروا طريقهم ذاهبين كعادتهم فكيف يبصرون حينئذٍ ؟ قال ابن عباس : المعنى لو نشاء لأعميناهم عن الهدى فلا يهتدون أبداً إلى طريق الحقّ[4] ، وهو تهديد لقريش ﴿ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم﴾ أي لو نشاء لمسخناهم مسخاً يقعدهم في مكانهم ﴿فما استطاعوا مُضيّاً ولا يرجعون﴾ أي إذا مسخوا في مكانهم لم يقدروا أن يذهبوا ولا أن يرجعوا ، وهو تهديد آخر للكفرة المجرمين ، ثم ذكر تعالى دلائل قدرته على مسخ الكفار بتطاول الأعمار فقال ﴿ومن نُعمره نُنكِّسْهُ في الخلق﴾ أي ومن نُطِل عمره نقلبه في أطوار منتكساً في الخلق فيصير كالطفل لا يعلم شيئاً قال قتادة : يصير إلى حال الهرم الذي يشبه حال الصبا ، فطولُ العمر يصيِّر الشباب هَرَماً ، والقوة ضعفاً ، والزيادة نقصاً ﴿أفلا يعقلون﴾ ؟ أي أفلا يعقلون أن من قدر على ذلك قادر على إعمائهم أو مسخهم ؟ قال ابن جزي : والقصدُ من ذلك الاستدلال على قدرته تعالى على مسخ الكفار ، كما قدر

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/ ٣٢٩ . (٢) الطبري ٢٣/ ١٧ .
(٣) هذا جزء من حديث أخرجه الإمام مسلم . (٤) تفسير القرطبي ١٥/ ٤٩ .

﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾

على تنكيس الإنسان إذا هرم[١] ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له﴾ أي وما علمنا محمداً الشعر ، ولا يصح ولا يليق به أن يكون شاعراً قال القرطبي : هذا ردٌّ على الكفار في قولهم إنه شاعر ، وإن ما أتى به من قبيل الشعر ، فالرسولﷺ ليس بشاعر ، والقرآن ليس بشعر ، لأن الشعر كلام مزخرف موزون ، مبني على خيالات وأوهام واهية ، حتى قيل « أعذبه أكذبه » فأين ذلك من القرآن العزيز الذي تنزَّه عن مماثلة كلام البشر ! ! وقد أكثر الناسُ في ذم الشعر ومدحه ، وإنما الإنصاف ما قاله الشافعي رحمه الله « الشعر كلامٌ ، والكلام منه حسنٌ ، ومنه قبيح » ﴿إنْ هو إلا ذكرٌ وقرآن مبين﴾ أي ما هذا الذي يتلوه محمد إلا عظة وتذكيرٌ من الله جل وعلا لعباده ، وقرآن واضح ساطع لا يلتبس به الشعر بحالٍ من الأحوال ﴿لينذر من كان حياً﴾ أي لينذر بهذا القرآن من كان حي القلب مستنير البصيرة ، وهم المؤمنون لأنهم المنتفعون به ﴿ويحقَّ القول على الكافرين﴾ أي وتجب كلمة العَذاب على الكافرين[٢] لأنهم كالأموات لا يعقلون ما يخاطبون به قال البيضاوي : وجعلهم في مقابلة من كان حياً إشعاراً بأنهم لكفرهم ، وسقوط حجتهم ، وعدم تأملهم ، أمواتٌ في الحقيقة[٣] . . ثم ذكَّرهم تعالى بنعمه ، وأعاد ذكر دلائل القدرة والوحدانية ليستدلوا على وجوده جلَّ وعلا من آثاره فقال ﴿أولَم يروا أنَّا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً﴾ الهمزة للإنكار والتعجيب أي أولم ينظروا نظر اعتبار ، ويتفكروا فيما أبدعته أيدينا ـ من غير واسطة ، وبلا شريك ولا معين ـ مما خلقناه لهم ولأجلهم من الأنعام وهي الإبل والبقر والغنم ، فيستدلوا بذلك على وحدانيتنا وكمال قدرتنا ؟ ! ﴿فهم لها مالكون﴾ أي فهم متصرفون فيها كيف يشاءون تصرف المالك بماله ﴿وذللناها لهم﴾ قال ابن كثير : المعنى جعلهم يقهرونها وهي ذليلةٌ لهم لا تمتنع منهم ، بل لو جاء صغير إلى بعيرٍ لأناخه ، ولو شاء لأقامه وساقه وهو ذليل منقاد معه ، وكذا لو كان القطار مائة بعير لسار الجميع بسير الصغير ، فسبحان من سخر هذا لعباده[٤] ! ! ﴿فمنها ركوبهُم ومنها يأكلون﴾ أي فمن هذه الأنعام ما يركبونه في الأسفار ، ويحملون عليه الأثقال كالإبل التي هي سفن البر ، ومنها ما يأكلون لحمه كالبقر والغنم ﴿ولهم فيها منافعُ ومشارب﴾ أي ولهم فيها منافع عديدة ـ غير الأكل والركوب ـ كالجلود والأصواف والأوبار ، ولهم فيها مشارب أيضاً يشربون من ألبانها ﴿من بين فرثٍ ودمٍ لبناً خالصاً سائغاً للشاربين﴾ ﴿أفلا يشكرون﴾ أي أفلا يشكرون ربهم على هذه النعم الجليلة ؟ والغرضُ من الآيات تعديدُ النعم وإقامةُ الحجة عليهم . . ثم وبخهم وعنفهم في عبادة ما لا

---

(١) التسهيل في علوم التنزيل ٣/ ١٦٦ . (٢) تفسير أبي السعود ٤/ ٢٦١ .
(٣) تفسير البيضاوي ٢/ ١٣٦ . (٤) مختصر ابن كثير ٣/ ١٧٠ .

وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾

يسمع ولا ينفع من الأوثان والأصنام ، وذلك نهاية الغيّ والضلال فقال ﴿واتخذوا من دون الله آلهةً لعلهم يُنصرون﴾ أي وعبد المشركون آلهة من الأحجار رجاء أن يُنصروا بها وهي صماء بكماء ، لا تسمع الدعاء ولا تستجيب للنداء ﴿لا يستطيعون نصرهم﴾ أي لا تستطيع هذه الآلهة المزعومة نصرهم بحالٍ من الأحوال ، لا بشفاعة ولا بنصرةٍ أو إعانة ﴿وهم لهم جندٌ محضرون﴾ أي وهؤلاء المشركون كالجند والخدم لأصنامهم في التعصب لهم ، والذبِّ عنهم ، وفدائهم بالروح والمال ، مع أنهم لا ينفعونهم أيَّ نفع قال قتادة : المشركون يغضبون للآلهة في الدنيا ، وهي لا تسوق إليهم خيراً ولا تدفع عنهم شراً ، إنما هي أصنام والمشركون كأنهم خدام[1] وقال القرطبي : المعنى إنهم قد رأوا هذه الآيات من قدرتنا ، ثم اتخذوا من دوننا آلهة لا قدرة لها على فعل شيء أصلاً ، والكفار يمنعون منهم ويدفعون عنهم ، فهم لهم بمنزلة الجند ، والأصنام لا تستطيع أن تنصرهم[2] . ﴿فلا يحزنك قولُهم﴾ أي لا تحزن يا محمد على تكذيبهم لك ، واتهامهم بأنك شاعرٌ أو ساحر ، وهذه تسليةٌ للنبي عليه السلام ، وهنا تمَّ الكلام ثم قال تعالى ﴿إنَّا نعلم ما يسرون وما يعلنون﴾ أي نحن أعلم بما يخفونه في صدورهم ، وما يظهرونه من أقوالهم وأفعالهم ، فنجازيهم عليه ، وكفى بربك أنه على كل شيء شهيد . . ثم أقام الدليل القاطع ، والبرهان الساطع ، على البعث والنشور فقال ﴿أولَم يرَ الإنسان أنَّا خلقناهُ من نُطفةٍ﴾ استفهامٌ إنكاريٌ للتوبيخ والتقريع أي أولم ينظر هذا الإنسان الكافر نظر اعتبار ، ويتفكر في قدرة الله فيعلم أنّا خلقناه من شيءٍ مهينٍ حقير هو النطفة « المني » الخارج من مخرج النجاسة ؟ ﴿فإذا هو خصيمٌ مبين﴾ أي فإذا هو شديد الخصومة والجدال بالباطل ، يخاصم ربه وينكر قدرته ، ويكذب بالبعث والنشور ، أفليس الإله الذي قدر على خلق الإنسان من نطفة ، قادر على أن يخلقه مرة أخرى عند البعث ؟ قال المفسرون : نزلت في « أُبي بن خلف » جاء بعظم رميم ، وفتَّته في وجه النبي الكريم وقال ساخراً : أتزعم يا محمد أنَّ الله يُحيينا بعد أن نصبح رفاتاً مثل هذا؟ فقال ﷺ له: نعم يبعثك ويدخلك النار)[3] ﴿وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه﴾ أي وضرب لنا هذا الكافر المثل بالعظم الرميم ، مستبعداً على الله إعادة خلق الإنسان بعد موته وفنائه ، ونسي أنا أنشأناه من نطفةٍ ميتة وركبنا فيه الحياة ، نسي خلقه العجيب وبدأه الغريب ، وجوابه من نفسه حاضر ﴿قال من يُحيي العظامَ وهي رميم﴾ أي وقال هذا الكافر : من يحيي العظام وهي بالية أشدَّ البلى ، متفتتةً متلاشية ؟ قال الصاوي : أي أورد كلاماً

(١) وهذا القول هو الذي اختاره الطبري ورجحه انظر تفسير الطبري ٢٣/ ٢٠ .

(٢) تفسير القرطبي ١٥/ ٥٦ بشيء من الاختصار . (٣) قال في البحر : وقيل إنها نزلت في « العاص بن وائل » والأصح أنها في « أبي بن خلف » وانظر سبب النزول المتقدم في هذا التفسير .

﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾

عجيباً في الغرابة هو كالمثل ، حيث قاسَ قدرتنا على قدرة الخلق[1] ﴿قل يُحييها الذي أنشأها أول مرة﴾ أي قل يا محمد تخريساً وتبكيتاً لهذا الكافر وأمثاله : يخلقها ويحييها الذي أوجدها من العدم ، وأبدع خلقها أول مرة من غير شيء ، فالذي قدر على البداءة ، قادر على الإعادة ﴿وهو بكل خلقٍ عليم﴾ أي يعلم كيف يخلق ويُبدع ، فلا يصعب عليه بعث الأجساد بعد الفناء ﴿الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً﴾ أي الذي جعل لكم بقدرته من الشجر الأخضر ناراً تحرق الشجر ، لا يمتنع عليه فعل ما أراد ، ولا يعجزه إحياء العظام البالية وإعادتها خلقاً جديداً[2] وقال أبو حيان : ذكر تعالى لهم ما هو أغرب من خلق الإنسان من النطفة ، وهو إبراز الشيء من ضده ، وذلك أبدع شيء وهو اقتداح النار من الشيء الأخضر ، ألا ترى الماء يطفىء النار ومع ذلك خرجت مما هو مشتمل على الماء ، والأعراب تُوري النار من المرخ والعَفَار ، وفي أمثالهم « في كل شيء نار ، واستمجد المرخ والعَفَار »[3] ولقد أحسن القائل :

جمعُ النقيضين من أسرار قدرته هذا السَّحابُ به ماءٌ به نارُ

﴿فإذا أنتم منه توقدون﴾ أي فإذا أنتم تقدحون النار من هذا الشجر الأخضر ﴿أوَلَيس الذي خلق السموات والأرض بقادرٍ على أن يخلق مثلهم﴾ ؟ أي أوليس الذي خلق السموات والأرض مع كبر جرمهما ، وعظم شأنهما قادر على أن يخلق أجساد بني آدم بعد فنائها ؟ ﴿بلى وهو الخلاق العليم﴾ أي بلى هو القادر على ذلك ، فهو الخلاّق المبدع في الخلق والتكوين ، العليم بكل شيء ﴿إنما أمرُهُ إذا أراد شيئاً أن يقول له كنْ فيكون﴾ أي لا يصعب عليه جل وعلا شيء لأن أمره بين الكاف والنون ، فمتى أراد تعالى شيئاً وجد ، بدون تعب ولا جهد ، ولا كلفة ولا عناء ﴿فسبحان الذي بيده ملكوتُ كل شيء﴾ أي تنزَّه وتمجد عن صفات النقص الإلهُ العظيم الجليل ، الذي بيده المُلك الواسع ، والقدرة التامة على كل الأشياء ﴿وإليه تُرجعون﴾ أي وإليه وحده مرجع الخلائق للحساب والجزاء . . ختم تعالى السورة الكريمة بهذا الختم الرائع ، الدال على كمال القدرة ، وعظمةِ الملك والسلطان ، الذي تفرد به خالق الأكوان .

البَلاغَة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/ ٣٣١ . (٢) تفسير الطبري ٢٣/ ٢١ . (٣) البحر المحيط ٧/ ٣٤٨ .

١ ـ طباق السلب ﴿أن لا تعبدوا الشيطان . . . وأن اعبدوني﴾ فالأول سلب ،والآخر إيجاب .

٢ ـ الاستفهام الإنكاري للتوبيخ والتقريع ﴿أفلـم تكونوا تعقلون﴾ ؟ ﴿أفلا يشكرون﴾ ؟ .

٣ ـ الطباق بين ﴿مضياً . . ويرجعون﴾ ﴿يُسرون . . ويعلنون﴾ وهو من المحسنات البديعية .

٤ ـ التشبيه البليغ ﴿وهم لهـم جند محضرون﴾ أي كالجند في الخدمة والدفاع ، حذفت أداة التشبيه ووجه الشبه فأصبح بليغاً .

٥ ـ ذكر العام بعد الخاص ﴿ولهم فيها منافع ومشارب﴾ بعد قوله ﴿فمنها ركوبهـم﴾ الآية وفائدته تفخيم النعمة ، وتعظيم المنة .

٦ ـ المقابلة ﴿لينذر من كان حياً﴾ الآية قابل بين الإنذار والإعذار ، وبين المؤمنين والكفار ﴿ويحقَّ القول على الكافرين﴾ وهو من ألطف التعبير .

٧ ـ الاستعارة التمثيلية ﴿مما عملت أيدينا أنعامـاً﴾ الأنعام تخلق ولا تعمل ، ولكنه شبه اختصاصه بالخلق والتكوين بمن يعمل أمراً بيديه ويصنعه بنفسه ، واستعار لفظ العمل للخلق بطريق الاستعـارة التمثيلية[١] .

٨ ـ صيغة المبالغة ﴿خصيم مبين﴾ . . ﴿الخلاَّق العليـم﴾ .

٩ ـ الاستعارة التمثيلية ﴿أن يقول له كن فيكون﴾ شبه سرعة تأثير قدرته تعالى ونفاذها في الأشياء بأمر المطاع من غير توقف ولا امتناع ، فإذا أراد شيئاً وجد من غير إبطاءٍ ولا تأخير ، وهو من لطـائف الاستعارة[٢] .

فَـــائِـــدَةٌ : الملكوت صيغة مبالغة من المُلك ، ومعناه الملك الواسع التام مثل الجبروت والرحموت للمبالغة .

تَـــنْبِيـــهٌ : قال العلامة ابن كثير : « ما ثبت عنه ﷺ أنه تمثل يوم الخندق بأبيات ابن رواحـة « اللهم لولا أنت ما اهتدينا » وما ثبت أنه قال يوم حنين وهو راكب على بغلته « أنا النبي لا كذب : أنا ابن عبد المطلب » وقوله « هل أنت إلا أصبعٌ دميت : وفي سبيل الله ما لقيت » الخ إنما وقع اتفاقاً من غير قصد إلى قول الشعر ، بل جرى هذا على لسانه ﷺ عفواً وكل هذا لا ينافي قوله تعالى﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له﴾[٣] اهـ. فتدبره فإنه نفيس .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة يـس »

* * *

(١) انظر حاشية شيخ زاده على البيضاوي ٣/ ١٤٠ .

(٢) انظر تلخيص البيان في مجازات القرآن للشريف الرضي ١/ ١٩٢ . (٣) مختصر ابن كثير ٣/ ١٧٦ .

طُبِعَ على نفقة المحسن الكبير

معالي السيّد حسن عبّاس الشربتلي

وَجَعَلَهُ وَقفاً لله تعالى

يوزع مجاناً ولا يباع